خيري شلبي

صاحب السعادة اللص

رواية

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

خيري شلبي

صاحب السعادة اللص

رواية

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

صاحب السعادة اللص

ISBN: 978-9953-27-927-5

الناشر

دار الكتاب العربي DAR AL KITAB AL ARABI

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس
Verdun St., Byblos Band Bldg.

ص. ب. 11-5769
P.O. Box 11-5769

بيروت 1107 2200 لبنان
Beirut 1107 2200 Lebanon

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف

Fax (+961 1) 805478 فاكس

E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني

www.dar-alkitab-alarabi.com

www..academiainternational.com
www..academia.com.lb

الإهداء

إلى طفلتي العزيزة «إيمان».. التي ولدت في واحدة من هذه القرى، في نفس الزمن.

خيري

السقوط في بئر الأحزان



السقوط في بئر الأحزان

كان الليل قد وصل إلى الذروة، وصدمت، وخيل إلي أنني نزلت قرية لا أعرفها. ثم استيقظ الحلم الذي طالما راودنا ونحن طلبة في الابتدائية أن تتحول قريتنا إلى مدينة، وكنا نزعم في حماس نقيم النوادي الرياضية ونفتح المراكز الثقافية؟ أليس في قريتنا نقطة بوليس وعساكر يستخدمون الخفراء في خدمتهم؟.. ولا تسألوا عن الاحتفال العظيم الذي أشعناه في البلدة يوم افتتح «عندنا» فصلان إعدادي.. وكان ثمة حلم توارثناه من إخوتنا الكبار جيل الأربعينيات، ذلك هو أن تضيء الكهرباء شوارع قريتنا، وكثيراً ما توغل بنا الحلم في أبعاد القمر فخططنا الشوارع والطرقات والمداخل، بل وحددنا نقطاً تصلح لإقامة محطات البنزين. أما المحطة التي سيقف عندها القطار وتسمى باسم بلدتنا فحدّث عنها ولا حرج كما يقولون، والواقع أن صوراً باهتة من هذا الحلم كانت تتراءى لنا كلما شاهدنا جمعاً من المزمعين السفر، نعم، فالمدينة في نظرنا كانت أيضاً، هي السفر، هي الذهاب والمجيء بالمتاع. وقد لعب مرشحو الدائرة طوال ثلاثين عاماً أو تزيد من عمر وعينا أدواراً بهلوانية على مسرح خيالنا. فلا بأس من عربة «قصراوي» تجيء من المدينة ـ التي بها «المركز» ـ إلى قريتنا رائحة غادية طوال مدة

الدعاية حتى إذا ما نجح المرشح خرجت العربة وذهبت بلا عودة.

كنت قد نزلت كعادتي منذ عشرين عاماً في محطة المركز، مفضلاً إياها عن المحطة التي تواجه بلدتنا مباشرة، على أمل أن احتمال وجود عربة أجرة في المركز قائم وقوي، في حين أن الوقوف على المحطة المواجهة لبلدتنا هو السراب بعينه في ليل كافر مجنون. ولست أدري لماذا كنت أحس أن الليل ـ لأول مرة في حياته معي ـ يفقد طعمه اللذيذ عند السفر، فطول عمري أحب السفر في المساء وفي البكور، ففي خيالي البعيد ذكرى من أحباء وأعزاء طالما نادتهم الأشواق والأفئدة في رحاب المساء... آه لو ينفتح الباب فجأة ونرى فلاناً داخلاً. هكذا تقوم أمي في كثير الأمسيات. غير أن السفر لا أدري لماذا فقد بهجته في ذلك المساء، لست أدري إن كان السفر أو الليل مسؤولاً عن إفساد كليهما!.

كانت البهجة التي خرجت بها من منزلي في المدينة قد آبت في عاصمة المحافظة إلى الشعور بالكلال والإرهاق الشديدين، ذلك أن جسدي قد تلقى من الإهانات قدراً هائلاً، ابتداء من الأتوبيس الذي استخف بنا جميعاً ولم يحضر إلا بعد ثلاث ساعات، ومروراً بموقف «أحمد حلمي»، وخذ عندك: السقيفة التي تقف تحتها عربات المحافظة التي أعنيها غير موجودة، ولا هي ولا غيرها من بقية الخطوط، وشبح مؤامرة يجثم على الصباح، ولا أحد يريد أن يرد عليك، غير أن وفوداً من اللاهثين يهرولون خلسة وراء بعضهم كالقرود أو أشد ذلة، يجرجرون أطفالهم ويتعثرون في حاجياتهم، فتقذف ببصرك وراءهم، فتراهم يتحدفون فوق عربة مرابطة على مبعدة، والسائق يشلت لهم ويشدهم من أقفيتهم، ويصرخ أطفال وتتكسر نظارات وتنشد كرافتات وتنهار أناقات سهر في تدبيرها..

لست أحسن منهم بالطبع أنت تستخفهم أي نعم ولكنك مع ذلك تزحف نحوهم على أمل أن تحدث المعجزة، أن يقف السائق بنفسه ويطرد راكباً ويقول لك تعال أنت، الحق إنك سترى هذا الأمل يطل من أعينهم جميعاً لا فرق بين أفندي وجلباب، بل سترى ناساً يبدو بما لا يدع مجالاً للشك أنهم من علية القوم المحترمين يتزلفون للسائق في تودد مهين كريه، وسوف تدهش حين ترى السائق يعاملهم بفهم حقيقي لهم: يعاملهم باعتبارهم أوباشاً حتى وإن كان واثقاً أنه من بينهم ومن صلبهم!.

تزغدك أذرع وتزيحك أكتاف، وتجلدك ملامح ملتوية في غموض عدواني، كل يتدثر بوقاره الزائف إلى حد الرغبة الواضحة في فرضه عليك بالقوة، وأنت تدعه في حاله وتتذرع أنت الآخر بوقار غير لائق عليك، فكيف يتسنى لك في هذه اللحظة أن تختار الوقار الذي على قدك! إنه وقار السلام، هو يقف بجواري، ذليلاً مثلي، مضروباً بالصرمة القديمة مثلي، ومع ذلك يوهمني أنه أرفع مستوى، ويلوح لي بحقيبته السمسونايت، ويخايلني بنظارته البرسول خلعاً ولبساً كأنها لعبة في يد طفل، ويذب الهواء والبعوض بالجرنان الملطخ بعرق الخبر، ويتيه علينا بنظرات طاووسية، ولا بد أننا في نظره رعاع، وإلا فلماذا يتعفف عن مشاركتنا في الحديث وتداول الأمر؟.. يبح صوتنا من العلو حوله: كيف يفعل السائقون بنا هكذا؟.. ماذا نفعل؟.. لكنه غير منتبه إليك، إنه يتنمر لعربة مقبلة ليكون أول من يقفز داخلها. وأنت من فرط الغيظ والمهانة لا ترى ظهراً ولا عصراً، إنما ترى الغروب قد دخل فجأة وأدرك المساء في أحمد حلمي. ولو لم يكن هذا اليوم يسمى في النتائج بالعيد، ويصدق الناس وأنت مثلهم تصدق، لفكرت في الرجوع، إلا أن رحلة

الرجوع تهون عليك مشقة المواصلة، والواقع إنك ـ بقدرة قادر ـ تكون قد سافرت حقاً حتى وإن كنت في أحمد حلمي ما تزال، وترابطت في ذاكرتك حوارات ولقاءات ومفاجآت، وترتبت أمور وصارت العلاقات قائمة ساخنة حية لا ينقصها إلا لحظة اللقاء. فهل تستطيع أن تمزق نفسك من هذه السدى وأنت لحمتها؟.. كيف؟!.

تسلم نفسك للسمسار يقودك إلى عربة في إحدى حارات شبرا البعيدة، وعليك بادىء ذي بدء ألا تناقش أي أمر أو تخضعه لمساومة، فإذا كان من هو أشيك منك وأرفع منزلة يلثمون الأيدي ويضعون فوقها نقودهم فليس عليك، وأنت قليل النقود مهما قبضت ـ إلا أن تقبل أي وضع، ولعلك ـ إن كنت ممن يقرؤون الكتب ـ تتذكر صورة كتبها إرهابي يهودي تقول: إنك لو غطست إنساناً في بئر وتركته فإنه سيحاول أن يطفو وقد يطفو، أما أن نزلت به إلى القاع السحيق فإن منتهى أمله يكون التنفس، مجرد التنفس! وحتى إن تذكرتها فهي لن تفيدك في شيء، بل إنك ستطردها باعتبارها هرش مخ... وقد رأيت أفندياً محترماً يتأبط جريدة مطوية وحافظة جلدية أنيقة ويرتدي أفخر الثياب ويبدي استعداداً للنوم تحت الكرسي في المسافات المتاخمة لنقط المرور.

غير إنك في النهاية لا بد أن تصل، هذا مثل حقير جداً من الأمثال الشائعة في قريتي، أي نعم سوف تصل، ولكن أي وصول؟..

وقد وصلت إلى عاصمة المحافظة التي يتبعها أهلي..

ثم كان علّي أن أركب القطار منها إلى مدينة المركز. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة وليس من قطار ذاهب إلى هناك إلا في منتصف الليل على الأرجح، ذهبت إلى موقف العربات، لم أجد عربة

واحدة، ولكنني وجدت شخصين يقفان ففرحت وظننتهما مسافران فداخلني الأمل في أن السفر في هذه اللحظة لا يزال مشروعاً، فلما اقترب مني أحدهما تبين لي أنهما سمساران، وأن سيارة يمكن أن تقلني إلى مدينة المركز نظير عشرة جنيهات. والعشرة جنيهات هي كل المبلغ الذي دبرته للرحلة من أولها إلى آخرها، فأنا موظف بسيط أتقاضى ثلاثين جنيهاً في الشهر، وبمناسبة ما يسمى بالعيد قبضنا مبكراً فتبرأت من مرتبي وأزحته على زوجتي لتتحمل مسؤوليته الشائكة، وكان من المقرر ألا أسافر لكنه - بمناسبة العيد أيضاً - أنعمت علينا المؤسسة بعشرة أيام بقشيشاً، بموجبها لبست بدلة كاملة وكرافت وحذاء لامعاً وأمسكت حقيبة واشتريت علبة سجائر كليوباترا كاملة «عشرين» اشتريتها من ماسح الأحذية في أحمد حلمي. فما إن وصلت إلى عاصمة المحافظة وجدت أن ما بقي معي لا يزيد عن ستة جنيهات مطوية بعناية وموضوعة في جيب سحري في حزام البنطلون، باستثناء قليل من البرايز والقروش في جيب الجاكتة.

رجلي فوق رقبتي ذهبت إلى محطة القطار وجلست على الدكة الخشبية انتظر، وأرى أشباحاً من ذكريات قديمة انبعثت شيئاً فشيئاً. وسار ملمس الدكة الخشبية يبعث في جسمي برودة لذيذة وصرت أنهد وأتهالك فوق حقيبتي فلما جاء القطار بدا كتنين خرافي، وكان خالياً إلا من باعة اللب والحلوى والمرطبات الساخنة، والعجيب أنهم ما كادوا يرونني أجلس في العربة حتى حملوا بضاعتهم ومروا جميعاً علي وقد استأنفوا النداءات بنفس الحماس الآلي، وراحوا وجاؤوا عدة مرات ثم تخاذلوا شيئاً فشيئاً وخمدوا من جديد. ثم جاء الكمساري ونظر في وجهي وأخرج دفتره وفتحه ووضع

الكربون وسحب القلم من أذنه ونظر إلي، واتخذ وضعاً جعلني أحس أنه يتحداني باعتباري أحاول أن أكون أفندياً محترماً. أحسست بسخف بدلتي وحقيبتي وهبطت شخصيتي إلى الأرض وأنا أراني مضطراً لفك جنيه، وأدعبس في جيبي وأخرج كل رصيدي بكل الحرص لأفتحه ببطء وأنتزع منه جنيهاً، كانت الفكة التي معي تنقص قرشاً واحداً ليكتمل ثمن الوصول والتطويق وأصر الكمساري عليه فأحسست نحوه بالكراهية!. ثم أن القطار أخذ يغوص في قلب الليل، الليل يخفت وتتباعد البثور الضوئية عن جلده الأسود السميك، والقطار كسكين الجزار يخرط ويخرط، وبقع الدم الداكن تظهر من حين إلى حين حيثما هدأ السكين على أحد الأرصفة.

وكانت بقعة الدم الكبيرة قد راحت تزحف نحو وجهي حتى غمرته تماماً، وحاولت أن أحجز ضوءها بكفي، وكرهتها، فقيل لي أننا قد وصلنا إلى آخر الخط أي أن هذه المحطة هي مركزي. فنزلت، ومشيت على الرصيف تائهاً، فلما بدأت أستمع إلى وقع خطوات حذائي عليه بوقعه المنغم اللذيذ أدركت بالفعل أنه رصيف مركزي، وأنه قد تعرف على خطوتي فبعث فيها رنينها القديم، حينما كنا نسير فوقه مختالين ونحن طلبة في ثانوية المركز تملؤنا بهجة لا حد لها وكأننا الغزاة الذين أصبحوا من أهل المدينة، وكانت لهجاتنا الريفية المعوجة تنعدل إلى لهجة بندرية مستقيمة القوام.

وجدتني عند نهاية الرصيف على الحافة، والقضبان تمتد أمامي متشابكة بلا نهاية تلمع كالسراب فعرفت أنني أخطأت الاتجاه ثم ما لبثت أن عدت أمشي إلى أن وجدته، السلم الذي أهبط منه إلى نفق يوصلني إلى باب ينفتح على الشارع العمومي. أشعلت ولاعتي البوتاجاز التي حرصت أن تكون معي لأتباهى بها على أهل

قريتي، فأضاءت بقعة صغيرة اهتديت منها إلى آخر سلمة فإذا بالنفق غارق في الماء، وإذ بي أغوص فيه حتى ركبتي فخرجت صاعداً إلى حيث كنت، ووقفت على الرصيف حائراً والماء يشر من ساقي، وذهبت إلى ناظر المحطة وظللت أطرق عليه الشباك الزجاجي الصغير إلى أن فتحه بضجر كبير، ودون أن يفتح عينيه سألني عما أريد فسألته هل النفق غارق في المياه؟ فقال مشوحاً: إنه لا يعرف، قلت له: إنه غارق في الماء فكيف أخرج إلى الطريق والظلام حولي وداخلي؟ فقال إنه أيضاً لا يعرف فشكرته ومضيت، ثم أنني هبطت إلى وسط القضبان وعبرتها إلى الأسلاك الشائكة واستندت إليها ناظراً فرأيت الأرض في قاع بعيد، فاعتدلت وظللت أمشي إلى أن انتهت الأسلاك الشائكة والتحمت القضبان بالطريق فانحرفت عائداً.. رأيت محطة البنزين على اليمين، والبيت الذي كان لأحد الباشوات واحتلته الحكومة الثورية وحولته إلى محكمة جزائية ثم عادت وسلمته إلى ورثة أصحابه من جديد، وبعده رأيت مركز البوليس، بيت هو أيضاً وله حديقة كبيرة أينعت لكثرة المحتجزين في تخشيبته من تجار المخدرات وأولاد الليل الأشقياء، ثم رأيت مدينة أخرى كاملة، مدينة جديدة تماماً، كانت بخيلة بضوئها تحتجزه داخلها، فلما اخترقتها وجدت أكثر من صيدلية ساهرة وأكثر من مقهى يلعلع فيه أحمد عدوية وأنور العسكري، وعساكر جيش وسائقي سيارات، ولافتات بالنيون تنبىء عن ساعاتية وكهربائية، وأسماء أجنبية لمحلات، وبازارات ومعروضات في فتارين منسقة. ففرحت أيما فرح، واستيقظ الليل من جديد في داخلي فجلست على المقهى المطل على طريق عمومي دائري. وطلبت قهوة فجاءتني قرفة، وسألت عن سجائر كليوباترا فعرضوا عليَّ السجائر الأجنبية،

وكنت بحاجة إلى التدخين بعد أن نفدت علبتي فامتثلت صاغراً واشتريت علبة بثمانين قرشاً، وقررت بيني وبين نفسي أن أختصر مدة زيارتي للبلد يوماً أوفر فيه هذا المبلغ المسفوح ثم رحت أعدد أسماء أولاد شقيقاتي البنات وأشقائي الصبيان، وأحاول أن أتذكرهم جميعاً وأتخيل ملامحهم، وحاولت أن ألتمس أعذاراً تبرر لي التخاذل في إعطائهم «عيديتهم» ولكنني لم أستطع أن أكره ملامحهم أو كثرتهم. ثم دخلت أمي في الحال.. الواقع أنني أنا الذي دخلت عليها وكانت متربعة في القاعة تخيط ثيابنا القديمة وترتق الملاءات أو تصنع من بقاياها ملابس لمولود جديد. ابتسمت وتحسست حقيبتي التي أضع فيها شيئاً عزيزاً لها، طرحة من الحبر كانت أمي تحدث بها الركبان والرعيان المسافرين، وكان أبي يفشل دائماً في العثور عليها كلما نزل المدينة، فظلت حلماً يشغل بالها إلى وقت قريب، وقد استطاعت زوجتي تدبيرها من «دلالة» محنكة أقسمت أن هذه هي الطرحة التي تريدها أمي، ولسوف تطرق بابنا لشهور تسعة لتنتزع منا كل شهر جنيهاً، كنت فرحاً بهذه الهدية القيمة وأتعجل الوصول من أجلها.

تلكأ الولد وهو يعطيني بقية ربع الجنيه، وعزَّ عليَّ أن يقف كوب القرفة عليَّ بعشرة قروش كاملة، ولما لم أقل للولد: خلاص يا ابني، وفضلت الاستنطاع، رمقني بنظرة أكثر استنطاعاً رمتني بمعنى جارح فهمت منه أنني أفندي دنيء.. وقلت لنفسي: إنه ليس صادقاً على أي حال، فإن كنت أنا دنيئاً في نظره فنظرته هذه نابعة في الأصل من دناءته. لوى رأسه نحو النصبة وصاح في ضجر: معاك قروش يا حودة؟.. شوف لي معاك أي فكة ضروري. فنظر «حودة» بدوره إليَّ مستغرباً إصراري على انتظار القروش. وكنت

في الحق ضعيفاً، ليس لأنني أعلنت إصراري على أخذ الباقي بل لأنني أعلنت احتجاجي على هذه الضجة الفارغة دون لزوم، وأضفت بكل صفاقة: حد قال لك هات باقي؟ ثم أن الخيبة حلت بي ففتحت العلبة ورأيتني أنفحه سيجارة ثمنها أربعة قروش أي ما يعادل ثمانية أرغفة، فنزعها بجلافة وغلظة ووضعها في أذنه دون اهتمام، فكرهته هو الآخر. لكنه سارع فأشعل لي سيجارتي بولاعة رونسون من أحدث طراز، فغاصت ولاعتي في كفي ثم توارت في جيبي وقد قررت ألا أظهرها، وقال الولد الذي نصفه جرسون ونصفه بلطجي:

- أنت فين دلوقت يا بيه؟

تمعنته جيداً، شكله ليس غريباً، قلت له:

- الله... أنت تعرفني؟

ابتسم:

- أنت مش عارفني وإلا إيه؟

ثم جلس أمامي دون تكليف. أخذت أغلفة الزمن تنجاب عن وجهه شيئاً فشيئاً. كان بائعاً سريحاً في القطار الذي تعودنا أن نركبه إلى المدينة حيث نتعلم، كنا أفندية صغار يعاملنا الجميع باحترام ويساعدوننا في النزول وفي الركوب، ويتوسطون لدى الكمساري في فض مشاكلنا! ويدعون لنا بالتوفيق حتى يكون في البلد ناس متنورين، وكان هذا صغيراً مثلنا ينظر إلينا بانبهار وبقرب منا سبت الحلوى والسوداني قائلاً: «ربنا ينجحك يا بيه تذوق الحلاوة دي».. فنشتري منه وكان يكبر معنا حتى كأنه واحد من

«شلتنا» ومن جيلنا، جزء هو لا يتجزأ من عالم القطار وعالم المدنية التي أحببناها، وظل يحمل السبت إلى وقت قريب جداً حتى بعد أن تخرجنا وصرنا مهندسين وأطباء ومدرسين وكتبة في المحاكم والشركات.

- إزيك يا «زوزو»..

هكذا صحت إذ تنكرت اسمه فجأة.

- عليك نور.. لا صاحي برضه..

قال هذا وهو يسحب السيجارة من أذنه ويشعلها ثم سألني:

- إتوظفت فين؟

قلت له - كذباً - إنني تخرجت من الجامعة وعينت مهندساً زراعياً، والواقع إنني كنت موظفاً بالجمعية التعاونية بدبلوم التجارة المتوسطة قال: ما شاء الله.. ما شاء الله.. قلت: وأنت؟ قال: مستورة والحمد لله.. ربنا تاب علينا من الشقا.. القهوة دي بتاعتي. نظرت حولي.. كراسي وترابيزات أنيقة مثل مقاهي القاهرة وأحسن، جدران كلها بالموزايكو، أكواب وصواني جديدة، نصبة كبيرة عليها صفوف من الشيشة والبوري والأكواب والفناجين. قدرت المكان كله - لا أدري لماذا - باثني عشر ألفاً من أهيف القد ممشوق القوام قلت له: هل سافرت إلى إحدى الدول العربية؟.. قال: لا.. ولماذا يهين الإنسان نفسه؟.. قلت: فمن أين لك هذا؟.. وعزمت عليه بسيجارة أخرى ما دامت خربانة خربانة، فأزاحها وقدم لي علبته المارلبورو قائلاً: من باب الله.. كله على الله.. ثم قال: هل أنت مسافر إلى البلد؟. قلت: نعم، قال: ليتك جئت مبكراً قليلاً كنت بعثت الولد يوصلك. قلت: ولد

من؟! قال: سائق عربتي.. فعندي ـ فضلة خيرك ـ عربة أجرة على قد حلها ترمح طول النهار هنا وهناك. ثم أشار إلى المدعو «حودة» فجاء، فقال له: اذهب واطرق شباك الأسطى فرج وقول له المعلم بيقول لك فيه توصيلة مخصوص. انطلق «حودة» وترك أمامي نظرة كأنها تفتتح حساباً ما. غاص قلبي في ركبتي لدى سماعي كلمة مخصوص، وكدت أسأله صراحة كم سيكون الأجر، لكنني أمسكت. وبعد ثلاث سجائر جاء «حودة» ومعه الأسطى «فرج». دعكت عيني وخيل لي أنني في حلم. أمعقول أن يكون الأسطى «فرج» هو نفس الأسطى «فرج» الذي أعرفه؟ حين تقدم مني تأكدت إنه هو، ثم إنه أقبل نحوي مبتسماً: «إزيك يا بيه.. والله زمان» ثم جلس.

سلمت عليه وطلبت له قهوة. الأسطى «فرج» جزء من طفولتي. كان سائقاً للأنفار في الوسية أو بمعنى أصح صبياً لأحد المقاولين يقوم بجمع الأنفار من بعض البلاد والعزب، فلما قامت الثورة عمل «خولياً» في الإصلاح الزراعي، وآخر أخباره عندي أنه اشتغل سائق جرار في الجمعية الزراعية، فهل تراه سيوصلني بجرار الجمعية؟. قال إنه لولا معزتي عنده لما صحا من النوم الآن. قلت له: إذن فهيا بنا. قال: الولد زمانه جاي. قلت: ولد من؟. قال: ابني!.. قلت: هل تزوجت يا عم فرج؟ قال: إنه تزوج ثلاث مرات، وإنه أنجب ولداً قبل النكسة بثلاث أعوام. ثم أن الولد جاء. طفل في الثانية عشرة من عمره، رفيع صغير كالنحلة الزعزوع. قال له أبوه: سلم يا ولد على عمك سراج. فسلم الولد علي. قال له أبوه: حتوصل سعادة البيه البلد.. بلدنا يعني. قال الولد بظرف: هو البيه من «كوم الديابة»؟ قلت: نعم. وقال أبوه: ما تعرفش خالك رضوان الصباغ؟ أهو أبو سعادة البيه يبقى متجوز بنت خالته. فسلم الولد علي مرة أخرى وقال:

تفضل يا بيه. فنهضت واقفاً. وقلت للأسطى «فرج»، «ستأخذ مني كام». ابتسم وقال: «مفيش فرق يا بيه اللي تدفعه». قلت: «معلهش برضه أحب أعرف». قال: «الدنيا ليل» و«السكة زي ما أنت عارف كلها لبط».

قلت: «البركة فيك». قال: «خلاص ادفع خمسة جنيه».

تهاويت جالساً. نظر إلي في استنكار: «إيه كتير؟». قلت: جداً. قال: «خلي علينا».. وصله ياد وتعالى. قال: «زوزو»: «شوية عليك وشوية عليه.. ادفع أربعة جنيه يا بيه». قلت: «مستحيل.. هذا مبلغ خرافي». قال الأسطى فرج: «أمال عاوز تدفع كام؟». وكان ودوداً حقاً. فلم أجب، لأنني أعرف بالضبط ماذا علي أن أدفعه. وقال: «زوزو»: «البيه مننا وعلينا يا أسطى فرج». وقال الأسطى فرج: «دانا اللي مربيه.. دانا.. أسأله يقولك». وكان يريد أن يقول إنني كنت ذات يوم من بين الأنفار الذين يسوقهم للعمل في الوسية لكنه تحرج. وأحسست بجروح تنزف داخلي. فقلت وأنا أتشعلق بأعلى درجات البكوية: «آخر كلام حاديلك ثلاثة جنيه». وكنت في أعماقي أتمنى أن يرفض، لكنه قال: «هات ثلاثة ونص علشان خاطر الذكريات القديمة بس». قلت: لا. قال: «زوزو»: «عندي أنا». قلت: لا. قال الولد: «خلاص عندي أنا». قال فرج: خلاص اتصرفوا مع بعض.. تتنازل عن بقشيشك؟ قال الولد: «رقبتي» فدفعت ثلاثة جنيهات وجررت ساقي بصعوبة شديدة إلى حيث تقف العربة.

عربة هيلمان عمرها فوق الأربعين. فتحت بابها بكل قوتي، وجلست بجوار الولد مكتئب المزاج ضائق الصدر، وعبثاً حاولت إغلاق الباب الذي صدعني من الخبط والرزع دون جدوى، فكان علي أن أظل مسنداً إياه بذراعي من فتحة الشباك. وكنت أخاف أن يسقط

الولد بها في أي ترعة أو يخرم في أي حقل من فرط الظلام، لكنه كان يقودها نصف واقف ونصف جالس كالجن المصور. وقلت له: من أين جئتم بهذه العربة؟ قال: إنها كانت وجه السعد، استلقطها أبوه من على الطريق جثة هامدة بخمسين جنيهاً، ثم لفق لها موتوراً وخرط لها قطع غيار من صنع يديه، وشغلها على خط المركز ـ القوي.. فجاءت برزق وفير وابتنى أبوه عمارة من ثلاثة أدوار وقفت عليه في النهاية ببلاش، إذ جمع تكاليفها وثمن أرضها من الخلوات. قلت: «ما شاء الله.. زوزو ما هي أخباره؟» فابتسم الولد في خبث عجوز وقال إنه ما شاء الله ظل يجاهد حتى استخرج رخصة مطعم وفول وطعمية في المركز، وسار كل شهر يأخذ تموينا من الزيت والفول، ويبيعه ويذهب المشتري بنفسه ليتسلمه من الحكومة ـ أي أن «زوزو» يتاجر بلا رأسمال، بل هو يقبض أثماناً عالية وهو جالس في داره.. فجمع رأسمالاً كبيراً افتتح به هذه المقهى واشترى عربة أجرة.. ولا تزال رخصة المطعم تتسلم التموين بانتظام رغم أن هذا المطعم لم يكن له وجود في يوم من الأيام!

ظننت الولد يهذي بأي كلام، قلت له: كيف يحدث هذا، إنك يا بني قد لا تعرف أن هناك مفتشين صحة ومفتشين تموين ومباحث وما إلى ذلك مما لا يستطيع رجل كهذا أن يفلت منهم. وهنا انفجر الولد ضاحكاً بصفاء يشوبه قدر قليل من الخبث، وكان من حين إلى حين ينظر إلي نظرة سريعة خاطفة ليرى إن كنت أمزح بهذا الكلام أو أقصد الجد. ولاحظت عدم التصديق الشديد في وجه الولد وفي ضحكته المستمرة ونظراته المستنكرة. فقلت له إنني لا أمزح، فقال بكل بساطة: «تبقى أنت حضرتك يا سعادة البيه.. لمؤاخذة يعني.. مش عايش في الدنيا!».

استغربت من جرأة الولد، وتعشمت خيراً في الأجيال القادمة، فها هو ذا الطفل يعرف من أين تؤكل الكتف، ويعرف أيضاً كيف أن الأكل من الكتف فن يجيده أذكياء المجتمع وأن الأغبياء فقط والمتخلفين عقلياً هم الذين يخترعون كلاماً كثيراً عن الشرف والأخلاق يبررون به عجزهم عن الكسب والنجاح أمام أولادهم!.. قال الولد:

ـ مفتشين إيه يا بيه كل سنة وأنت طيب!

ـ يعني إيه يا شاطر؟ تقصد إيه يعني!

ـ مفيش حد ماهش عايز فلوس يتمتع بها ويربي ولاده..

ـ أيوه بس فيه أخلاق وقوانين وشرف.. وإلا كل واحد يعمل إللي هو عايزه والدنيا تبوظ..

ـ لمؤاخذة يا بيه.. الدنيا باظت يوم ما سمعنا الكلام ده.. بقى الشرف والأخلاق إني أنا أقعد أتفرج على الكسيبة وأنا مش لاقي آكل؟!.. تعرف يا بيه.. أنا حاقول لك على حاجة بسيطة.. هي الست إللي بتبيع جسمها عشان تاكل وتسكن وتلبس.. بنسميها إيه.. شريفة ولا ماهش شريفة؟

ـ طبعاً ما هش شريفة؟

ـ طيب.. يبقى الشرف يعني تجوع وتتعرى وتتطرد من بيتك.

ـ أنت في سنة كام يا شاطر؟

ـ أنا في الإعدادية ومش ناوي أكمل.

- ليه؟

- وأكمل ليه؟

- عشان يبقى معاك شهادة!

- أعمل بيها إيه؟

- تتوظَّف بيها.

- وأتوظَّف ليه.. أنا مجنون.. ده ماهية الموظف دي أنا أكسبها في يوم..

- عشان تبقى متعلم ومتنور وفاهم الدنيا.

- أصل يا بيه اتضحت حاجة.. إن الواحد عمره ما يتعلم ويتنور ويفهم الدنيا من الكتب.. الناس طول عمرها بتتعرى وتتعلم وتصرف دم قلبها.. وبعدين يطلعوا من المدارس والكليات يلاقوا الدنيا حاجة ثانية خالص غير إللي تعلموه..

- طيب ما فيه ناس كتير اتعلمت ونجحت في حياتها.

- أنت بالك هما نجحوا عشان عملوا باللي تعلموه!. أبداً.. دول من الأول فاهمين كل حاجة.. واتعلموا بس عشان يتباهوا بالشهادة.. إنما يركنوا إللي تعلموه ده على جنب.. ويشتغلوا باللي في دماغهم هما.. بالفهلوة اللي تعلموها في السوق وفي بيتهم.. أمال يا بيه الحياة أصلها مش لعبة.. أنا بسوق العربية دي وسني تسع سنين.. وكنت بسوقها وأنا واقف وأنيك شايف السكة اللي باسوق فيها شكلها إيه..

- بس الفهلوة دي نصب.. واللي يعيش كده بالفهلوة يبقى نصاب وحرامي وسفاح «نظرة جانبية قلد فيها فريد شوقي»:

- يا بيه الدنيا كلها مبنية على كده.. نصب في نصب.. أبويا لما أتجوز أمي نصب عليها وفهمها أنه ولد مفيش منه وكسيب وهو كان لسه يا دوب نفر في الوسية.. ولما دخل عليها ولقت أنه ع الحميد المجيد ما بقتش ترضى له.. نصب عليها علشان يخلفني.. قعد يقول لها دانا بحبك وأنت حياتي دانا ح أعمل لك وأسوي.. ومن يوم أنا ماجيت لحد النهار ده وهو بينصب علي.. يفهمني أنه بيفهم أكثر مني عشان أخاف منه وأحترمه قدام الناس.. ويفهمني إني أنا راجل عشان أبقى أريحه في الشغل..

«نظرة جانبية أخرى قلد فيها شكري سرحان»:

- ومفيش حاجة تغيظ بقى غير النصب بتاع المتعلمين والأفندية.. تروح للدكتور بالست بتاعتك وهي حامل يديها نصائح مالهاش أول ولا آخر كل يوم نصيحة.. تأخذ له الطفل المولود يديلك عشر ميت نصيحة.. والراديو والتلفزيون كل حاجة منها لها عشرين ألف صوت كلهم بيقولوا لا إحنا إللي نغسل أكثر بياضاً.. والأصوات اللي بتقول الكلام ده عن الحاجة دي هي نفسها اللي تقول نفس الكلام ده على الحاجة الثانية.. وفي حالة ثانية تلاقي دكتور ولا مهندس ولا واحد من الأسانيد يقول لك لا ما تعملش كذا وما تصدقش الكلام الفلاني.. مش كل ده نصب يا سعادة البيه؟.. تعالى بقى على الجماعة اللي بيرشحوا نفسهم في الانتخابات.. كل واحد منهم يلف ع البيوت ويقول حا اعمل وأسوي وحاجيب للبلد وحا وظف وحا شق مصارف وأدخل الكهرباء وأرصف وأجيب ميه

والآخر كلهم بيجيبوا جاز.. زي البابور لما ينطفي ويبرد يروح جايب جاز.. الله.. هو إحنا يا سعادة البيه عمرنا شفنا المطربين يغنوا ليل نهار لخضر العطار.. إيه بقى خضر العطار ده؟.. ده لو بيبيع ماء الحياة مجاناً.. يعني لو كان المسيح عليه السلام أو سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ما كانش يتغنى له كده.. تعرف.. الناس عندنا في الأفراح بيجيبوا فرقة فيها مطرب أي كلام.. ويغني برضه خضر العطار.. زي الراديو.. طبعاً مش حتقدر تقول له ما تغنيش كده؟ حيقولك أنت أحسن من الراديو!.. ده لازم يكون الملحن اللي لحن اللحن ده وأخذ أجرته عزبة سبعتلاف فدان، ويكون خضر العطار قارون اللي بيقولوا عليه في الحواديت.. يا بيه صلوا ع النبي يا بيه وما توجعش دماغك.. اللي تعرف ديته اقتله..

وكنا قد وصلنا إلى مدخل البلدة حين تمهل الولد في القيادة فيما يقول:

- حمد الله على السلامة يا بيه..

- الله يسلمك..

ووقف وقال إن دخول البلدة لم يكن ضمن الاتفاق، ذلك أنهم يتفقون دائماً على الوقوف عند هذا الكوبري، لأن شوارع البلدة مليئة بالمطبات والأوحال ثم أنها ضيقة كثيرة المنحنيات.. قلت له ففيم المخصوص إذن؟ قال: المخصوص يعني أن أطلع بك وحدك ولا أتوقف لأحد ولا يضايقك أحد. وكنت أرى أن دخول البلدة أمر وارد في ذهنه وفي الاتفاق ولكنه يساوم لإضافة نقود جديدة. غير أنني لم أجد في نفسي طاقة لأي شيء. ففتحت الباب ونزلت.

وكان الليل قد بلغ الذروة حين أخذت أجوس بين الحواري الضيقة التي ازدانت بالفوانيس الكهربائية، تلقي على الأرض ضوءاً شاحباً يعمق الليل أكثر مما يؤنسه، ورغم أن جغرافية الحواري كانت تؤكد لي أنها جزء من بلدتنا إلا أن ثمة شيئاً ما كان ينفي هذا التأكيد، لعله انعدام تلك الرائحة القروية الجيدة، رائحة الروث والألبان والسمن المقدوح، رائحة الخبز الطازج والتقلية، كان يحل محلها رائحة البنزين المحترق، وكانت ثمة عربات فارهة تقف أمام البيوت المبنية بالطوب الأحمر! وكان بيتنا قد غرق في صمت مألوف جعلني أطرق شباكه في هدوء يتناسب معه، فلما طال الطرق شددت من وقع قبضتي. وفتحت لي زوجة أخي ولم يكن يبدو عليها النوم، ومن داخل القاعة البعيدة كانت تلمع أضواء سماوية في خفقات سريعة متتالية، فعرفت أن بالبيت جهاز تلفزيون، وأنهم ساهرون حوله، عجبت طبعاً كيف تسنى لهم هذا، لكنني سرعان ما تذكرت أن لي شقيقاً صغيراً كان قد سافر إلى السعودية مساعداً لأحد عمال البناء.

أدخلت إلى الدار بحفاوة شديدة لا تتناسب مطلقاً مع حجم محتواي المادي، وهبّت الأسرة كلها في سعادة وإشراقة، ونزلت أمي عن السرير وعانقتني. كان كل إخوتي قد حضروا.. النجار والسمكري والنساج والخياط والبناء وكانت انتشرت في القاعة أشياء غريبة وشاذة: روب دي شامبر.. كاميرا.. جرامفون.. أسطوانات.. كاسيتات.. بنطلونات حريمي.. وثمة حقائب كبيرة جداً لم يكن يخطر ببالي أن يكون عندي مثلها، كانت كلها محشوة بالهدايا والأشياء المشتراة من هنا وهناك. وكان من الواضح أن أمي قد أشبعت تماماً، وأنه لم يكن ينقصها إلا مجيء ابنها الموظف، أي المحترم

الوحيد في العائلة كما قد توارثوا، الأفندي الوحيد الذي تعلم على حساب الباقين والذي من المفروض أنه كبير العائلة.

رميت حقيبتي الحقيرة، جلست بينهم أحاول أن أكون سعيداً بأي شكل، ولا أدري كيف تسرب خبر حضوري في هذا المساء، إذ انفتح الباب ولم ينغلق بعدها حتى الصباح من كثرة الداخلين والخارجين، وكان إخوتي الأصغر مني قد راحوا يتبارون في توزيع الأوراق النقدية الجديدة على الأطفال، ويبعثون في شراء أشياء ولا يسألون عن الباقي، الأمر الذي أحالني وسطهم إلى عود من القش الجاف، الذي إن عصرته نزت منه الكآبة السوداء. وكان الوقت كلما أمعن في الضحى والوضوح تعريت، وحتى قدوم الصباح كنت أتذرَّع بطلوع النهار وقدوم الأطفال المهيمن في نطاق الأسرة لأعطيهم «عيديتهم»، ولكن الصباح جاء ومن بعده الضحى، وصرف الأطفال أضعاف أضعاف ما بقي في جيبي، وكان لا بد أن انصرف، ورحت أبحث عن أسباب قوية تبرر رحيلي في نفس اليوم - يوم العيد. وفتحت حقيبتي وأخرجت على استحياء شديد الطرحة الحبر ملفوفة في ورقة جرنال، وقدمتها إلى أمي، ففكتها مبتسمة، ومبتسمة أيضاً راحت تشوّح بها في مرح مردِّدة: يو... و.. و.. أنت لسه فاكر.. إن شاء الله ما اشتهيك. ثم أنها وضعتها بجوارها في عدم اهتمام، وقالت.. لتفرحني أو لتشقيني لست أدري:

- هاتي يا بت الهدايا إللي إخواتك جايبينها لما أفرجه.

وجاءت أختي الصغيرة بعشرات الأشياء التي تتضاءل أمامها هديتي إلى الصغر. تفرجت بلا حماس، ولم أسأل عن أشياء كثيرة كانت تستحق السؤال. ثم أن الجميع خرجوا للتجول في القرية

وزيارة المقابر ما عداي، وعادوا ثم خرجوا ثم عادوا مرات عديدة يصحبهم رجال وأطفال، وكنت خلال نلك مشتت الفكر يشغلني أمر هام: كيف أصحوا مبكراً لأبدأ العودة في رحلة عجفاء تخلو من كل رفاهية، فما بقي معي بالكاد - يوصلني إلى بيتي متشعبطاً. وكنت ألاحظ أن الأطفال يشيحون عني في تجاهل مهذب، ولا يستجيبون لمداعباتي!

السعد الذي طرق أبواب اليتيمات



السعد الذي طرق أبواب اليتيمات

حين نزل من محطة القطار لم يعرف بالضبط ما اسم هذه المحطة بل لم يعرف بالضبط لماذا ركب هذا القطار بالذات، فقد سأل وهو في العاصمة عن خط الأرياف فدله أولاد الحلال إلى هذا القطار، فركبه، وعرف أن مظهره هو الذي جعلهم يوجهونه نحو القطار بدلاً من عربات الأجرة المرفهة، ولقد ساعده كل من سأله سؤالاً وحمل عنه بعض أحماله، وقد رزقه الله بمن رافقه إلى المحطة وقطع له التذكرة وأسلمه لمن يكون مسؤولاً عنه في القطار، ذلك أن «شلادة بخشوان» رجل ضرير مغلق العينين تماماً، جارم الأطراف والملامح، عملاق، يرتدي جلباباً بلدياً حائل اللون يبرز من فتحته صديري وفي القدمين بلغة بيضاء.

فلما انحشر في القطار المزدحم بكتل اللحم البشرية وجد - ويا للعجب - من يتنازل له عن كرسيه، ومن يتولى إيجاد مكان لحقائبه على الرف المستطيل، بل ومن تطوع بحراستها والتتميم عليها كلما وقف القطار على محطة. ومنذ جلس لم يكلف نفسه عناء السؤال عن شيء، حتى حينما سأله أحدهم:

- على فين العزم يا حاج؟.. قال بسرعة: آخر الخط إن شاء الله.. وقد أجاب بناء على التذكرة التي اقتطعها والتي أراد لها أن

تكون مفتوحة وعليه أن ينزل في المحطة التي تعجبه. وظل يراقب حركة القطار بدقة شديدة وانتباه عظيم لا يتوفر إلا للعميان أمثاله. فكان يدرك بالملاحظة أن مجتمع القطار يتغير من محطة إلى أخرى. فجأة يسود مجتمع نصف مدني، وفجأة ينقرض بعد محطتين، ليسود مجتمع ريفي قح، يظل يمعن في قحته فكأن القطار يدخل شيئاً فشيئاً في بطن لهجات تشبه أن تكون قبلية من فرط تميزها الشديد. فما إن وصل القطار آخر محطاته حتى بزع في أذن «شلادة» من يعرض عليه أن يتفضل معه. لحظتها لم يكن قد بقي في القطار أحداً سوى هذا الفلاح الذي وجد في القطار رجلاً غريباً، فلا بد أن يكون قاصداً بلدتهم، ولا بد أن يكون قريباً لأحد من أهله، فعليه إذن أن يقوم بالواجب تجاهه.

مالت رأس شلادة نحو مصدر الصوت:

- إحنا فين دلوقت يا ابني؟

- إحنا في البشلاوة المحطة.

- أمال بشلاوة البلد تبقى فين؟

- ما فتناها ورانا.. إللي عاوز ينزل بشلاوة البلد ينزل في المحطة اللي قبلها أحسن له.. عشان يمشي خمسة كيلو بس!

ابتسم الوجه الأسمر ذو الشعر الكثيف:

- أمال اللي ينزل بشلاوة المحطة بيروح فين؟

- يروح البريمة.. أنت حضرتك رايح فين؟

- أنا كده بلاد الله خلق الله.

ـ آه.. بالجودة.

هكذا ختم الفلاح وقد ترسب في نفسه إحساس بالخوف من التورط في ضيافة قد تعطل مصالحه.. ومع ذلك وهو يهم بالنزول قال:

ـ طب ما تتفضل معانا.

ـ يزيد فضلك.. نزل معايا الشنطة؟

أعفاه الفلاح من حمل أي شيء، فشد حقيبتين بحزام جلدي ومال فحشر كتفه بينهما، ثم حمل الثالثة بيمناه وباليسرى سحب «شلادة بخشوان» ونزل به من القطار، ثم استدار يحجل بخطوة الثقيل نحو الطريق الزراعي.

العدد القانوني لركاب العربة خمسة ركاب، ولكن «حمدي» السائق يوسقها بعشرة على الأقل، وهي عربة فورد موديل ١٩٣٨ ـ اشتراها «حمدي» من وكالة البلح ولفقها ورممها فكلفته ثلاثمائة جنيه هي كل مدخراته منذ توظف تمورجياً بالوحدة العلاجية سنة ١٩٥٦ وصار يزوغ من الوحدة بعد ساعة أو ساعتين بالكثير ليجري على السكة رائحاً غادياً من المحطة إلى البلد يعمل له في اليوم عشر أدوار بالراحة. النفر بعشرة قروش وتحسب الحقيبة نفراً إذا تجاوزت يد صاحبها، ولا حديث لركابه طوال الطريق إلا هو نفسه، كثرت عجوله وأبقاره لدى الفلاحين، كيف ابتنى بيتاً «حديثاً» في مواجهة الوحدة وسط الحقول. كيف أنه ـ وهو الذي لا يذهب إلى العمل ولا يعمل ـ يرفع القضايا ضد الوحدة ويوكل المحامين يطالبون له بحقه في الترقيات والدرجات والعلاوات. ويكسبها بالفعل.

يضحك حمدي بصوت مسرسع كاشفاً عن أسنانه الصفراء الكبيرة، يزغد من بجواره كأنما ليستحثه على مزيد من الثرثرة، ويسوق العربة وهو جالس على ما لا يزيد عن شبر، إذ الكرسي الامامي في هذه العربة الفورد ذات الأصول النبيلة قد تحول إلى كنبة الخلفية فيحتلها خمسة آخرون، يجلس فوق ركبهم ثلاثة أو أربعة، والعربة تجأر وتزمر وتزعق، وتنشال وتتحط وهم لا يبالون.

ـ قف ياسطى.

قالها «شلادة» في لهجة حاسمة، وكانت العربة لحظتها قد أخذت الرابع وراحت تعمل على دهك الركاب في بعضهم وتحويلهم إلى عجينة واحدة، والسكة عجفاء مضلعة..

ـ عاوز إيه يا حاج.

هكذا رد حمدي في أدب شديد كما تقضي التقاليد بمخاطبة الغرباء.

ـ ما دام عندكم نظام العربيات، يبقى عندكم نظام المخصوص.

ـ أيوه عندنا.. عندنا كل حاجة..

ـ مش ممكن تطلع بي أنا لوحدي مخصوص؟

ـ ممكن قوي.. أنزلوا يا أسيادنا.. بس حناخذ منك ثلاثة جنيه يا حاج..

ـ ما يهمش..

ـ خلاص.. أنزلوا يا جماعة.. ربع ساعة وحارجع لكم.

توقفت العربة وحدثت حركة سريعة أحس «شلادة» خلالها أن الدنيا راقت بعض الشيء، ولما سأل عن ابن الحلال الذي كان يرافقه رد عليه قائلاً إنه لا يصح أن يتركه وحده. ورغم أن شلادة لا يملك عينين إلا أنه تأكد أن الركاب كلهم لم ينزلوا. وأن ثلاثة فقط هم الذين نزلوا، ولكنه قرر بينه وبين نفسه أن يدفع الجنيهات الثلاثة وأمره إلى الله.

منذ تلك اللحظة بدأ حمدي ينشغل بأمر «شلادة»، فمنذ برهة كان يتصور أنه رجل «أي كلام»، مجرد ضرير يمشي بصحبة أهل البلدة ومعه ثلاثة حقائب كبار، أما أن يتمخض عن رجل كبير هكذا، يدفع ثلاثة جنيهات في توصيلة كهذه، ودون مساومة فإنه لأمر لا ينبغي أن يفوت على حمدي. ولذلك فإنه استعاد حديثه وكف عن الهزار، وبلهجة رزينة قال: «أمال الحاج منين؟».

فقال «شلادة» بلهجة يفهم منها أنه من شخصيته، أن وطنه الحقيقي هو شخصيته.

- مش مهم.. بلاد الله خلق الله.

- أيوه لكن البلد الأصلية إيه؟..

- من دولة عربية جنبكم.. بينها وبينكم فركة كعب.

فنظر الفلاح إلى كعبه فوجده ينبيء عن مشّاء كبير وإلى ملابسه الكالحة فوجده لا يزيد عن بائع سريح، فقال كأنه يتبرأ منه أمام أهل بلده:

- تصوروا أنه نازل بلدنا وهو ما يعرفش أي حد فيها؟!

نشط خيال «حمدي»:

- تايه ولا أيه؟

- لا يا ابني.. أنا تاجر.. معايا بضاعة بأبيعها.

واعتقل «حمدي» خياله قليلاً:

- ربنا معاك.

لكنه لم يستطع التغافل عن الحقائب الثلاث وما يمكن أن تحويه من بضائع، فحمدي يحب الصوف والكشمير، ويحب الفانلات أم رقبة والجواكت الشمواه، ويحب الساعات المعلن عنها في الشرق الأوسط، ويحب أن يكون عنده جهاز للتسجيل يتباهى به ويخادع الأصدقاء و«يسجل» لهم، ويحب قبل كل ذلك وبعد كل ذلك أن يصطاد هذه الأشياء قبل أن يصطادها غيره..

- إيه البضاعة اللي معاك يا حاج؟

- كل طلباتك.. بس أما تنزل وأفرجك.

وظل حمدي طول الطريق صامتاً، فلما وصل إلى الجمعية الزراعية حيث يتعين عليه الوقوف للعودة، إذا به يواصل السير إلى داخل البلد. وعجب من كانوا معه وكشفوه بتعليقاتهم، وكان حمدي قد نسي أنه خدع الأعمى وأوهمه بأن التوصيلة «مخصوص» وها هي ذي ليست كذلك..

- هما بيطلعوا منين ياخويه؟

هكذا علق الأعمى، فانفجرت الصدور ضاحكة، واضطر حمدي

إلى مداراة حرجه بالضحك، لكنه سرعان ما وثب على الموقف واعتلاه:

ـ على العموم خلي عنك.. التوصيلة دي على حسابي.. وكان في صوته نبرة جادة صادقة.

ـ تشكر يا أسطى..

ـ اسمع.. الغريب مكروم لأجل النبي.. وأنت النهار ده ضيفي.

ـ الله يكرمك ما نتحرمش.

ودون أن ينتظر رد الأعمى انطلق نحو بيته، وحين وقف نزل من السيارة وأشار للركاب قائلاً: طب مع السلامة أنتو.. اتفضل يا حاج. فنزل الأعمى وسحبه حمدي إلى الداخل، وأدخل السيارة إلى حوش المنزل وأغلق بابه.

دبت الحياة في بيت حمدي على غير العادة، هو الذي انعزل عن الناس كلهم منذ أن صار ذا مال، وأغلق على نفسه أبوابه كلها درءاً للحسد، ذلك أن اللقمة التي تفتش لا تؤكل، آثر أن يعيش مع أمه العجوز في هذا البيت الكبير «وطرمخ» على مسألة الزواج هذه خوفاً من أن يجيء بواحدة ليست من صلبه تشاركه في ماله ومتاعه، فأي امرأة كائنة من كانت في نظره لا يحق لها أن تجيء - على الجاهز - وتصبح شريكة لمثله في خيره، فلربما انفصل عنها بسبب من الأسباب وما أكثرها ويخسر بذلك شيئاً مما داخ في جمعه وتكوينه.

وظل يخطب ود الزواج من بعيد لبعيد متعشماً أن يخلق الله له واحدة خاصة بمواصفات خاصة، وظل بيته يطالعك في مدخل البلد

أنيقاً تحوطه حديقة ويصدح فيه عبد الباسط ليل نهار.

غير أن هذا البيت سرعان ما تحول إلى سوق، تؤمه العرائس والعرسان، ويؤمه التجار والزبائن والسماسرة، ففي ظرف أيام قليلة كان صيته قد طبق الآفاق وصار من المألوف أن تجد الركائب مربوطة في سور البيت تنتظر أصحابها الذين جاءوا من العزب المجاورة يتفرجون أو ينتقدون أو يسفهون من قيمة البضائع ولكنهم جميعاً في النهاية يشترون ويدفعون.

انتشرت على أجساد الولدان الصغار فانلات ملونة وبنطلونات محزقة أو مترهلة، الأمر الذي أحدث ما يشبه الانقلاب في البلد، فهذه الملبوسات والمقتنيات قاصرة على الذين لهم أقارب من المعارين للعمل في البلاد العربية، وهؤلاء كانوا يشكلون طبقة متميزة. أما أولئك الذين لم يكن لهم أقارب فإنهم فجأة صاروا وكأنهم هم أنفسهم من العاملين في البلاد العربية، فها هي ذي الملبوسات والمقتنيات قد جاءت لحدهم وبنفس الأسعار تقريباً إن لم يكن أقل بكثير مما يزعم القادمون بالهدايا من هناك. وفي القرية لا توجد وجوه للإنفاق أكثر من الأكل والملبس والعلاج والكيوف المتاحة، وما بقي من هذه الوجوه ـ وهو قليل ـ مدخر لليوم الأسود الذي يعمل له الفلاحون ألف حساب. ولكن لم تكد تمر أيام قليلة حتى كان هذا الأعمى قد حصل على كل المدخرات، وخلال ذلك كان «حمدي» هو الذي يساوم ويبيع ويقبض ويعطي للرجل ما يقبضه، ويقول أهل البلد أن «حمدي» قد استنفع من ورائه كثيراً، ويقول آخرون أنه حصل فقط على عمولة، ويقول المقربون منه أن مكسبه كله لم يتجاوز حصوله على جهاز تسجيل وقطعتين من الصوف له وقطعة من الديولين لأمه.

وفي اللحظة التي بدأت وفود المشترين تتضاعف كانت البضاعة قد نفدت تماماً، وكان الأعمى قد عرف أنواعاً جديدة من المطلوبات التي يلح أهل القرية في طلبها، بل وعرف أسماء لأصناف لم يكن قد سمع بها مطلقاً، وتعجب كيف يمكن أن يصل صيت هذه الأشياء إلى مثل هذه القرى البعيدة عن كل عمران. لقد جاء من يسأله مثلاً عن أقراص «الجفرين» التي تعطي الإنسان قوة الحصان. ومن يسأله عن إبر ماكينة الخياطة سنجر، ومن يسأله عن الجوخ والكشمير، والملاءات والطرح البيضاء. والخلاط والمفرمة وماكينة الحلاقة بالكهرباء، والطاسة التي لا يلتصق بها الطعام، وعرف كذلك طائفة من الأشياء الغريبة، فهذه سيدة عجوز تسأله عن قماش يسمى (الحبر) - بفتح الحاء والباء - وأخرى تسأله عن شال من القطيفة وثالثة تسأله عن المسك والجاوة. وجاء في السر ناس من علية القوم تسبقهم مقدمات دبلوماسية يسألونه عن أفلام من التي يتفرج عليها الأمراء في بيوتهم الخاصة. وجاء شبان من طلبة المدارس الثانوية يسألون عن مجلات السكس. كذلك عرف طائفة أخرى من الأشياء الأكثر غرابة التي تتدرج كلها تحت بند «الأصلي» فمنها أشياء معلومة بل ومتوفرة في كل مكان ولكنها ليست الصنف الأصلي إنما هي المقلد!!

حينئذٍ نام الأعمى على ظهره فوق سرير حمدي الذي تنازل له عنه، وسرح بأفكاره إلى بعيد. إن القرية، إذن، تريد سوقاً كاملاً يحفل بكل هذه الطلبات، إنها تعامله ليس باعتباره بائعاً سريحاً لا فرق بينه وبين أي من البائعين المنتشرين هنا وهناك من قديم الأزل، بل تعامله باعتباره بلداً عربياً بحاله انتقل إليهم ومطلوب منه أن يلبي كل احتياجاتهم. لقد أخطأ حين زعم أنه من ليبيا الشقيقة

وأنه أحد تجارها فعاملوه على أنه ليبيا، ثم حاول أن يطرد عن ذهنه شبح التفكير خوفاً من أن يرى «حمدي» أفكاره فتتكشف حقيقته، لكن سؤالاً ملحاً كان يطرق دماغه: ما الذي يحدث لو علم كل هؤلاء أنه مصري مثلهم، أنه محروم مثلهم من كل ما يحتاجون إليه وأنه مثلهم أيضاً يطلب ما ليس في حاجة إليه وهو لا يعرف السبب في ذلك، ألا يعرف هؤلاء الأغرار المساكين أن هذه الأشياء التي باعها لهم بكل مدخراتهم هي في حقيقة أمرها أشياءه التي اشتراها لنفسه بشقاء ثلاث سنوات في ليبيا؟!. نعم، لقد تمكن من السفر إلى ليبيا بمعجزة منذ ثلاث سنوات، وكان مؤذناً في أحد المساجد، وكان يدعي أمام الأغراب أنه إمام وأنه من ضحايا عبد الناصر الذي سجنه مع الإخوان المسلمين، وحدث أن وفد إلى القاهرة ثري ليبي يطلب زوجة وبعض الخدم وكان «شلادة بخشوان» يقرأ «راتباً» لدى أسرة الزوجة فوقع في عرضها فكلمت زوجها الثري فقال إنه ابتنى تحت منزله زاوية صغيرة ولا بأس من أن يصحبه معه إلى ليبيا إماماً لهذه الزاوية. وفي ليبيا زعم أنه من ضحايا أنور السادات وأنه أخرج من بلده مطروداً بلا مال ولا زاد ولا متاع، وبذلك حصل على الجنسية غير أن الماء دائماً يكذب الغطاس المدعي، فسرعان ما كشف ادعاءه المصلون، وأهملوه تماماً واختاروا لهم إماماً من بينهم، فآب إلى وضعه الطبيعي مؤذناً، ثم لم يعد يحظى بأي تقدير، ثم ساءت المعاملة فطلب السفر، وأخذ مدخراته فاشترى بها كل ما سمع عنه أو جنب اهتمامه خلال فترة الاغتراب في ليبيا، فلما عاد من جديد إلى القاهرة التي سيطرت على أحلامه اكتشف فجأة إنه بلا أهل فيها، وأن المبيت في المسجد لم يعد أمراً مستحباً خاصة وأنه قد صارت له ممتلكات

كهذه، فأصيب بيأس شديد وفكر في الاستغناء عن بعض هذه الممتلكات لقاء أجر المبيت، إلا أن تفاهة العائد لم تشجعه على الاستمرار خاصة وأن جيبه لا يزال عامراً ببقايا جنيهات، إلى أن رأى نفسه مدفوعاً للسفر بما معه بحثاً عما يكون قد خبىء له في المجهول، فقاده الحظ السعيد إلى هذه القرية الصغيرة الثانية.. فماذا يفعل الآن وقد نفدت بضاعته، هل يتحول إلى سوق أم يكتفي برزقه ويرتد عائداً، ولكن إلى أين؟..

وفي الصباح عند تناول الفطور قال شلادة بخشوان لحمدي العرايشي:

- إن شاء الله أنا مسافر النهار ده.

- مسافر ليبيا؟!

- إن شاء الله.

أشرق وجه حمدي بالبشر:

- كده على طول؟

- إذا عزمت فتوكل على الله.

- يعني خلاص زهقت مننا؟

- لا.. دانا راجع ثاني.

- صحيح؟

- أمال.. الطلبات اللي الناس طلباها لازم أجيبها.

- على خيرة الله.

* * *

ثم كتب حمدي قائمة من طلباته الخاصة قدمها له، تتضمن تلفزيوناً ملوناً وغسالة وثلاجة إن أمكن. وقال «شلادة بخشوان» إن كل شيء ممكن ولكن على المدى الطويل يسهلها المولى. فصدق حمدي كلامه وقام ليوصله بالعربة إلى القاهرة.

«كل ذي عاهة جبار».. هكذا يقول المثل في قرية «البريمة» وفي كل القرى، وإذا اعتبرنا أن العمى عاهة بالنسبة لشلادة بخشوان فإنه يكون مثلاً صادقاً تماماً. ومهما يكن من أمر فإن «شلادة بخشوان» جبار بكل معنى الكلمة. لقد مر بعربة حمدي العرايشي على أماكن متعددة في المدينة توقف عندها ونزل كأي «بيك» من بكوات العصور القديمة، وانتظره حمدي كأي سائق، ثم يعود دون أن يذكر أي شيء عن الأماكن التي دخلها، ثم أنه ودع حمدي في المطار، وما إن سمع صوت العربة الفورد القديمة المهانة يبتعد في زئيط المدينة حتى استوقف تاكسياً وعاد به إلى وكالة البلح.

على مقهى هناك التقى بمن تواعد معهم من أصدقائه القدامى، وقاموا ببضع جولات في وكالة البلح استمرت عدة أيام واسفرت عن مجموعة من الحقائب الكبيرة والبالات والشكائر والأجولة، تجمعت كلها في عربة «هوندا» نصف نقل، واتخذت طريقها إلى قرية البريمة. نفس الطريق الذي حفظه «شلادة بخشوان» عن ظهر قلب فصار وهو الأعمى يقود السائق ويحكي له أسماء وأخبار هذه الصفوف من البيوت الطينية المتجاورة.

تجاوزت الأمور قدرة «حمدي العرايشي» على السيطرة فخرجت البضائع من نطاق داره، فتحولت القرية إلى سوق كبيرة، ونشأ له

سماسرة ومروِّجون وخبراء بلا خبرة حقيقية. حتى البقالون والخياطون وبائعو الخضار اشتروا مجموعات من الأصناف بسعر الجملة وعرضوها في محلاتهم بطريقة أحسن وبأسعار مضاعفة.

ارتفع صيت حمدي العرايشي وصار نجماً لامعاً في البلد. وصارت العربة نصف نقل «الهوندا» تدخل البلدة كل بضعة أيام فتحدث رجة كبرى. وجرت الفلوس في كل الأيدي بقدرة قادر. فما أسهل على أي صعلوك خاوي اليد أن يشتري قطعة قماش بفلوس الآخرين ثم يبيعها بعد دقيقة فيكسب فيها ثم يشتري غيرها لصاحب الفلوس، وقد يلعب هذه اللعبة عدة مرات في اليوم.

وطوال هذه الأيام كان «شلادة بخشوان» يحلو له الخروج ليتمشى عند ترعة البلد بصحبة «حمدي العرايشي»، فيجد الحفاوة والاحترام الشديدين من كل الناس، ويتلقى العزائم ويتولى حمدي الاعتذار عنه لمشاغله الكبيرة، وأن هي إلا أيام أخرى حتى أهمل «حمدي» عربته وصار مجرد مدير أعمال لـ«شلادة بخشوان» وصارت عربته مخصصة لمشاوير شلادة فحسب. وكان يبدو على «شلادة بخشوان» أنه يزمع الحديث في أمر ما ولكنه يحجم في اللحظة الأخيرة، فكثيراً ما قال لـ«حمدي»: «عايز أكلمك في موضوع كده بس مش دلوقت»، فلما اشتاق حمدي إلى معرفة هذا الموضوع ذهب إلى «سيد الجمال» في «عزبة العبيد» واشترى منه تعميرة محترمة، وأغلق كل الأبواب والنوافذ ثم أوقد النار وصهللت الجوزة فكشف عن حشاش كبير جداً في ثياب «شلادة بخشوان»، ثم أن حمدي ضرب السيخ المحمى في قلب الجوزة وراح يدكه بعنف شديد وهو يقول:

ـ موضوع إيه اللي عاوز تكلمني فيه؟

اعتدل شلادة بخشوان ومسح على كرشه:

ـ بصراحة بقى.. عايز أتجوز!

ـ طب يا أخي قول كده من الصبح..

قالها في بهجة ممطوطة وقد أحس أن ثمة باباً جديداً للكسب فتح أمامه، لكنه سرعان ما أحس بخفقة من قلبه غير عادية، كان قلبه سيسقط منه، فإن تزوج «شلادة بخشوان» معناه خروجه واستقلاله بنفسه، أو بمعنى أصح وضع نفسه تحت سيطرة جديدة يعلم الله من ستكون.

ـ تعرفليش عروسة بنت حلال كده وغلبانة؟

ـ طبعاً أعرف.. وأهم حاجة تكون غلبانة.. خدوهم فقراء يغنيكم الله.

ـ عليك نور.. بس تكون حلوة كده ومتختخة!

ـ وناوى تسكن بيها فين؟

ـ في أي بيت.. وإن حكمت نبني لها بيت..

ـ ع العموم ما تشيلش هم.. تقدر تسكن عندي لحد ما يحلها ربنا.

ـ إللي تشوفه.

ولم يكد ينتهى الحديث حتى كان «حمدي العرايشي» قد حدد

العروس تحديداً قاطعاً وبلا رجعة. فالبنت «فكيهة» بنت المرحوم مرشدي لا يطرق بابها الخطاب أبداً، على الرغم من أنها أجمل جميلات البلد، والكل يقع من طوله حين تمر عليهم، حتى نساء القرية يغازلنها لأنها بحضورها تضعهن في خانة الذكور. وقد كانت أمها تنام على كنز دفين من فلوس المرحوم وقد درج الناس في بلده على عدم الزواج من الجميلات لأنهن فتنة ولأنهن ـ بالقطع ـ غير شريفات!.. وصحيح أن أحد من أهل البلدة لم يضبط «فكيهة» متلبسة، ولم يمسك عليها فعلاً شائناً، ولكن الجميع يؤكدون دائماً أنها على علاقة ما ببعض الرجال، وقد يكون فلاناً وقد يكون علاناً ولكن ليس من المعقول أن تظل فكيهة بلا علاقة خاصة وأنها ليست في حماية رجل. وتنهد «حمدي العرايشي» وهو يقول في نفسه: آن الآوان لأن يعرف هو قيمة الكنز الدفين لدى «أم فكيهة».

إن كان على الأم فهي موافقة بلا تردد، وأن كان على «فكيهة» فإن موقفها تجاوز حدود الصمت إلى حد إعلان السعادة، متيمنة في ذلك بمثل أصيل «ضل راجل ولا ضل حيط». وأما بخصوص الكنز فقد كانت «أم فكيهة» واضحة تماماً، إذ أوضحت له حقيقة الأمر مصرحة ما لديها: إلى جانب ربع نصف الفدان الذي ورثته عن المرحوم هناك قرط ذهبي كان في أعماق «الصحارة» تدخره لخرجتها ـ أي للصرف من ثمنه على موتها. وكان لا بد لحمدي أن يرى القرط ويختبره، وكجزء من الاختبار وضعه في جيبه فلم تعترض «أم فكيهة» وإن أحست بقلبها ينقبض، ولعله انقبض من فرط ما تمثل لها شبح البوار في سوق ابنتها الوحيدة العزيزة، بقيت هناك مشكلة ومشكلة خطيرة: أن «شلادة بخشوان» يحب أن يختبر جمال البنت، وهذا من حقه، لكن كيف يتم له ذلك، وكيف

يكون وجه «أم فكيهة» أمام أهل البلد؟ إنها تعرف أن ابنتها موضع كلام وحديث ويعلم الله كم يعذبها ذلك إذ هي تعرف حقيقة ابنتها جيداً. فهل تساهم بدورها في المزيد من تسوىء سمعتها!؟

هنا قال «حمدي العرايشي» أن الأمر بسيط، فهو واثق أن «شلادة بخشوان» سيدخل بيتها دخلة واحدة ينتهي في أعقابها كل شيء، فالبنت أنثى وشلادة فحل هائج متعجل وأن الأمر لن يتعدى مجرد اللمس باليد مرة والاستماع إلى صوت البنت مرة وشرب الشاي من يدها مرة، ثم قال لها إن التلفزيون يريهم السلوك الواجب إتباعه عند الخطوبة، ألا ترين أن الخطيب والخطيبة يفعلان كل شيء عياناً بياناً؟. فتنهدت من أعماق صدرها وقالت على الله التساهيل والستر.

كان «حمدي العرايشي» مصيباً فيما قال، واستجاب الله لدعوة «أم فكيهة» بالستر، إذ لم يستغرق الأمر سوى جلسة واحدة، فعلى حد قوله أنه اشتم رائحتها منذ أهلّت، وإنه كان يبصرها تماماً إذ هي جالسة بجواره، فلما امتدت يده نحوها لم تخطىء طريقها أبداً.

اشتركت القرية كلها في الفرح، وكان فرحاً بهيجاً بحق لم تشهد له القرية مثيلاً من قبل. وزف «شلادة بخشوان» إلى «فكيهة مرشدي» على سرير «حمدي العرايشي» كان «حمدي» في أعماقه مبسوطاً، وفي ليلة الدخلة أشرف بنفسه على حمام «شلادة» وعلى مزاجه فظل به حتى مطلع الفجر كلما فتح شلادة باب حجرة النوم وجد في انتظاره طاقم من الحجارة المرصوصة، ووجد النار في وهج.

في الصباحية كان «شلادة» قد خلع الحزام الجلدي من وسطه

واستغنى عنه نهائياً وترك لفكيهة مهمة الاحتفاظ بما ينطوي عليه من ورق النقود الحمراء الخضراء، وكانت العربة «الهوندا» نصف النقل لا تني تجيء من وكالة البلح إلى قرية «البريمة» بلا توقف حتى دون أن يسافر لها «شلادة» وكان السائق واثنان يرافقانه يحلو لهم الوقوف أمام المتفرجين على نزول البضائع ويتكلمون بلهجة ليبية ويبلغون «شلادة» سلام فلان وفلان وفلانة من أجاويد ليبيا. حتى حين أصيبت العلاقات بين ليبيا ومصر بالانهيار كما يزعم الراديو ظلت العربة الهوندا تؤكد قيام العلاقات وتؤكد أن المسألة «بسيطة» وأن ما بيننا وبين «ليبيا» حبة زعل، وسوف يروق الجو عما قريب.

لم يكن «حمدي العرايشي» يتوقع هذه المفاجأة، لكنه احتملها، صحيح أن «فكيهة» التي خدمها ضربته خازوقاً كبيراً طلع من نخاعه ولكنه لم ينسَ أنها تعمل دائماً على تمكين العلاقة بينه وبين «شلادة» ومنحه المزيد من الثقة. ولذا لم تطل دهشته حينما سمع أن «فكيهة» قد اشترت قطعة أرض مجاورة لتبني عليها «فيللا» أنيقة تقيم فيها مع زوجها، وأن هذه الفيللا ستكون باسمها كما رغب «شلادة». لقد أحس أن «شلادة» ينسحب من تحت سيطرته، وأن نهر المكاسب الذي كان ينحدر نحوه سوف يستقيم، حسن، إنه - «حمدي» - لن يستطيع الوقوف في وجه التيار وإلا كان مجنوناً لن يقوى على كسر قوام النهر حتى يظل منحدراً نحوه، ومن الخطأ محاولة ذلك، فخير له إذن أن يظل النهر يمر به ولو مرور الكرام، وعموماً إذا لم يذهب الجبل إلى محمد فليذهب محمد إلى الجبل، هكذا سمع الوعاظ يقولون، وهو يستطيع أن يلحق النهر إذا ما النهر غادره، المهم إلا يجف النهر تماماً.

ذهب «حمدي» إلى «فكيهة» وعاتبها باحترام شديد كيف تفعل ما فعلته من وراءه وهو لها بمثابة الأخ، ألم يكن وكيلها في عقد الزواج؟ إن ما فعلته خير أسعده، ولكنها إن شاورته لجاء لها بفرص أحسن، وعموماً فهو لا يزال تحت أمرها، وإكراماً لها ولزوجها سوف يتولى الإشراف على بناء هذه الفيللا بمزاجه، وسوف يجعل منها أعظم بيت في البلد.

فلمعت في عينيها نظرة نكية قالت بها أشياء كثيرة، وقالت أيضاً أنها موافقة على أن يظل يستنفع من ورائها ولكن عليه - فحسب - أن يترفق بها وبالرجل الضرير. وقد حلا لحمدي أن يتغافل عن هذه الغمزة وإن بدا أن جديته قد باخت. وهو في كل غدوه ورواحه، وعند سفره لشراء الطوب من أمكنة بعيدة، ولاستلقاط الأسمنت من السوق السوداء وكل الأسواق السوداء بعيدة مكلفة، ولجلب الحديد «بطلوع الروح»، وفي الإصرار على استدعاء «المهندس» من المدينة.. في كل نلك يعلم أنه مكشوف وأن حماسه مجرد «هجص» وأن الأطفال في أيدي أمهاتهم يعرفون أنه ينهب «شلادة» ولكنه مع نلك لم يكن يخفت له حماس ولم يكن يمل من تعليق الابتسامة القادمة هي الأخرى من وكالة البلح، ولم يكن الأمر يخلو من مداعبات شبان خبثاء، أو تعليقات جارحة من البنائين والعاملين إلا أنه لم يكن يأبه لها، بل كان يضحك في خبث شديد وشاحب مردداً بينه وبين نفسه: مساكين يعتبرونني أنهب شلادة بخشوان ولا يحقدون على شلادة بخشوان الذي ينهبهم ويبيع لهم أشياء سبق بيعها مراراً وتكراراً.

ولا تسل عن الإشراق الذي حل بالقرية يوم اكتملت «الفيللا» وتصدرت مدخل الطريق إلى البلد، فقد اكتسحت كل ما أمامها

وحولها من بيوت حتى بيوت القادمين من الإمارات. تحولت «فكيهة» إلى أسطورة لا تقل شأناً عن أسطورة ست الحسن والجمال، أليست تنتقل بين عشية وضحاها من عشة إلى سراية، وترتدي أفخر الثياب، فجأة صارت سيدة تطل من البلكونة وتجلس في الفراندة ويزورها النساء ليقمن عنها بكل الأشغال. وصار لها حديقة وبستان وخادم يقول لها: يا ست، وانتقلت أمها لتعيش معها سيدة هي الأخرى وبان عليها العز خاصة عندما تقيم الصلاة ملتفة بطرحتها البيضاء الحريرية. كان الجميع يحترمونها بحق وتلمس صدقهم من على بعد، إلا «حمدي العرايشي» رغم مبالغته الشديدة في احترامها. كانت نظراته دائماً تشككها في سعادتها، كانت تقول لها إن هذه السعادة وهذه السيادة مشتراة كلها من وكالة البلح، وأنها سبق أن بيعت عشرات المرات، فيها عرق الآخرين وذكرياتهم وشقائهم، فيها أيضاً سعادتهم وتعاستهم، هي أشياء فقدت أثمانها ولكن كل ذي عاهة جبار يبيعها بأغلى الأثمان في سوق الحرمان - كان «حمدي العرايشي» يوشك أن يشرح كل هذا لفكيهة بكل وضوح وجلاء، غير أن «فكيهة» كانت تسد عليه كل المنحنيات والمنعطفات، فقد كانت أذكى منه بكثير، فإذا كان فيه ذكاء المرابين المكتنزين ففيها ذكاء الفقر، ذكاؤه ذكاء النمر المفترس يعرف أين بالضبط يغرس نابه، وذكاؤها ذكاء الأحلام التي طال احتباسها وقد حان أن تتنفس فلتكن هذه الحياة كلها مشتراة من وكالة البلح بتراب الفلوس، فلتكن هي وكالة البلح نفسها طالما هي قد وضعت يدها على ما كان في خزائن الحلم، وصحيح أنها تلبس ثياباً خلعها الآخرون ولكنها تدخل حياة جديدة.

ومرت الشهور سعيدة هنية لا يشوبها شائبة تعكر صفوها

وتربع «شلادة بخشوان» ولظلظ وبدت عليه سمات الأمارة والعز. ولكن ثمة شيء ما كان يدور في الخفاء ولم يكن يلحظه في البداية غير «حمدي العرايشي»، فقد راقب «فكيهة» وعرف من مصادره الخاصة أنها تذهب في مشاوير مسائية طويلة، وتسافر أحياناً إلى المدينة في عربة مخصوص، ولما طقس واستقصى عرف أنها مشغولة بأمر الخلفة، فابتسم الشيطان في أعماقه وتركها تبحث. ثم أن الخبر بدأ يسري في القرية ويتهامس به الناس فيما يشبه الأشفاق الشديد على «شلادة» كأنهم جميعاً يحملون مسؤولية ثروته وكيف أنه لن ينجب من يرثها! مع حبهم الشديد لفكيهة.. غير أن الجد الله.. الله عليه.

وجلس «شلادة بخشوان» إلى «حمدي العرايشي» واستمتع بأنفاسه وعنايته برعي النار على الحجر وحرصه على تغيير الجوزة وتنظيفها. وحين سخن الحديد رفع «حمدي» مطرقته وهوى بها قائلاً:

- باين عليك مشغول.. أنا عارف كل حاجة.. وحاسس بمأساتك.

وكان يعرف أن هذه الجملة الأخيرة مجرد جملة التصقت بذهنه من حوار التمثيليات ولكنه استطعم قولها، ثم أضاف على الفور:

- المال والبنون زينة الحياة الدنيا.. وأنت لا بد لك من ولد.

بدا على «شلادة» أنه تنكر هذا الموضوع فجأة، وتنكر «فكيهة» وما تثيره في لبه من هياج، لكنه قال:

- أي نعم صدقت والله.. لقد اشتقت إلى ولد.. ولكن ماذا أفعل؟

ـ ما رأيك في فكيهة؟

ـ الحق لله بنت لا تعوض.. غلبانة ومريحاني خالص.. وباسطاني.

ـ فيه أحلى منها.. بس بقى.. الخلفة عندهم من غير عدد.. أنها بتولد على الأربعين...

ـ طب وفكيهة؟

ـ في بيتها.. زي ما هي على زمتك برضه..

ـ طب وهي حتسكت؟..

ـ وحتعمل إيه يعني؟.. ولا تقدر تعمل حاجة.. أتوكل على الله وما يهمكش.

ـ خلاص.. توكلنا على الله.

وحين نطق بهذه الكلمة كان في ذهنه افتتاح بلدان جديدة مجاورة، وكان يحس أن العربة «هوندا» نصف النقل يجب أن تكون كبيرة.

* * *

انتعش الليل في بيت «حمدي العرايشي» طوال عدة أسابيع وفود من النساء تتلوها وفود، والهدايا تسرب خلسة قبل أن يلتقي الرجال «صدفة» ويجر الكلام بعضه جراً، كأنما هو صدفة أيضاً، وكل وفد من الوفود يباع للذي يليه، حتى إذا ما أحس «حمدي» أنه لم يعد في عيون الوفود دموعاً يذرفنها في داره كان قد انتقى

العروس المقبلة. يتيمة هي الأخرى من اليتيمات الكثيرات اللاتي مات آباؤهن في مناسبات عديدة. عندها ثلاثة قراريط ملك، لا مانع لديها من بيعها له بأي مبلغ يراه، وليس من شرط لها سوى أن يكون لها بيت لا يقل عن بيت «فكيهة» وتعهد لها حمدي بذلك. ولم تكن «وجنات» لتقل عن «فكيهة» جمالاً ولا نكاء حلم.

راحت «فكيهة» ترقب حركة البناء التي نشأت في مواجهتها على المدخل الآخر للبلد، تحقيقاً للانعزال والبراح، وكانت قد عرفت كل شيء، بل أنها اختارت عن اقتناع تام أن تسلم بما حدث، ونشطت منابع الحكمة الموروثة فيها منذ آلاف السنين وأفهمتها أن لبس الحياة المخلوعة لا يعلم الإنسان كيف يخلع أو يستغني، أنه على العكس يعلمه كيف يستبقي ويتشبث. ولقد تشبثت، ولكن بمنتهى العقل والحكمة، ها هي ذي تملك فيللا وبعض مدخرات ثمينة، وسوف تعيش على نفس الحال طالما «شلادة بخشوان» على قيد الحياة، فليفعل ما يحلو له.

وعبر هذه القنطرة المتينة انتقل «شلادة بخشوان» إلى الفيللا الأخرى القائمة على رأس المدخل الثاني للبلد. واستقبلته «وجنات» أحسن استقبال فأدارت رأسه وأيقظت فيه سعاراً جنسياً هائلاً، حتى أنه قال «لحمدي العرايشي» وهو يشد نفس الجوزة:

- تصور يا حمدي أن الدنيا كان فيها كل هذا.

قال حمدي بدون إحساس:

- شوف أنت بقى؟

بعد برهة قال «شلادة» بخبث هذه المرة:

- لكن يظهر أنها مش ناوية تعملها هي راخرة!

- يعني إيه؟

- بقى لنا كام شهر والعادة مستمرة!

- مش معقول!

- صحيح.. هي دي بقى العادة الوحيدة اللي الواحد ما يتمنهاش!

- على العموم أصبر وربنا يسهل.

وفي تلك اللحظة كان خيالاً شيطانياً قد بدأ يغزو أفق عينيه سابحاً مع كتل الدخان الأزرق التي كانت من فرط كثافتها تكاد تمطر في سماء هذه الغرفة.

* * *

توطد مركز «شلادة بخشوان» في المنطقة وأصبح كما يقول البلغاء العرب ناراً على علم، ولم يعد في حاجة إلى خطط أو مشاريع جديدة تسنده، بل أن فرية أنه ثري ليبي لم تعد في حاجة إلى إثبات ولن يصدق أحد عكسها. لقد صار «شلادة بخشوان» قوة كبيرة في المنطقة بقدر عدد المستفيدين من بقائه، إنهم جنوده الشجعان، إنها مملكة جديدة نشأت وأصبح لها حاشية ومعلمين وصبيان وقد صفصفت الجو خلال الأعوام القليلة عن بضع رجال عتاة أصبحوا من عتاة التجار في المنطقة، أصبحوا يقومون بكل شيء وما على «شلادة بخشوان» سوى التمويل بالبضائع، بل إنه صار يتعاقد ويقبض الفلوس فيما هو جالس في صالونه، ثم تجيء

العربات إلى عناوينهم وبأسمائهم، كان قد تنازل عن نسبة مئوية من مكسبه لحسابهم، أما هم فضاعفوها في القطاعي أضعافاً مضاعفة. وانتقل الحزام الجلدي من حضن الزوجة إلى حضن أحد البنوك وصار دفتراً أبيض يستطيع «شلادة» أن يملأه بأي مبلغ يشاء لأي مستفيد يشاء. ولم يتخل عن صحبة «حمدي» لأن «حمدي» لم يسمح له بذلك مطلقاً، إنه ولد «عشري» يصون العيش والملح.

ويبدو أن «وجنات» كانت ذات أصول أعرق قليلاً من أصول «فكيهة». هي صحيح تشاركها في اليتم لكن شتان بين الأصلين، ففكيهة كانت ابنة لأجير أما وجنات فكانت ابنة لمالك من الأعيان جار عليه الزمن، وإذا كانت فكيهة تملك نصف فدان فإن المرحوم ظل عمره يحوش ثمنه، وإذا كانت وجنات تملك ثلاثة قراريط فإنها بقايا ممتلكات، والمهم من كل ذلك أن «وجنات» كانت ـ كجسد ـ أقل فورة واكتنازاً وبروزات من «فكيهة» المتفجرة، إلا أنها أنثى من الداخل أكثر من فكيهة بما لا يقاس، حتى أن «شلادة بخشوان» نسيَ «فكيهة» تماماً وارتمى في حضن «وجنات» ولم يكن هناك شيء ينقص صفاءه غير أن العادة الشهرية لم تنقطع رغم مرور كل الشهور، الأمر الذي يجعل السعادة ناقصة نصفها بالضبط، فها هو ذا المال ينساب كالنهر بين يديه ولكن المال بدون بنين كالنهر بدون أرض يرويها.

والحق أن «فكيهة» وإن كانت سليلة فقر مدقع منذ عشرات الأجيال إلا أنها ظلت متماسكة محافظة على سمعتها، ولكن ذاكرة الناس لا تهمد أبداً، فسرعان ما رجعت إلى دفاترها القديمة وبعثت إلى الوجود تاريخ سلوكها وما كان يدور حولها من إشاعات، وراحت الألسن الهامسة تربط بين هذه الذكريات وبين ما يرونه الآن يحدث..

ذلك أن «فكيهة» قد بدأت في الشهور الأخيرة تستقبل في «فيللتها» بعض كبار التجار الذين يموِّلهم زوجها بالبضائع. وقيل إنها تدبر للإيقاع بزوجها، وقيل إنها تشتغل لحسابها بعد أن عرفت سر المهنة، وقيل إنها إنما تطفىء غلتها الجنسية بعد أن حرمت تماماً من زيارات شلادة الأسبوعية. لما بلغت هذه الأقاويل سمعها نزلت عليها برداً وسلاماً، وأغلقت أذنها عنها، بل ولم تحفل بالدفاع عن نفسها.

وحين عني «حمدي» بطرح موضوعها أمام «شلادة بخشوان» لم يعن بالوقوف عنده طويلاً إنما ذابت سيرتها وتبخرت مع الدخان الأزرق، وكان «شلادة» مشغولاً هذه المرة لحد الإكفهرار. وقال له «حمدي»:

- اعرض نفسك على الطبيب..

فقال «شلادة»:

- أنا واثق من نفسي.. لقد سبق أن أنجبت.

- كنت متزوجاً من قبل؟!..

- أي نعم.. يرحمها الله «أم علي» عاشت معي أياماً سوداء وكانت تنجب أولاداً ضعافاً يموتون.. ثم ماتت هي نفسها.

زام «حمدي» مثل الكلب يجامل سيده:

- خلاص.. البذرة سليمة والأرض مالحة.. إبحث عن غيرها..

وقال «شلادة»:

ـ عندك عروس؟

وكانت جعبة «حمدي» حافلة مقدماً باليتيمات الفقيرات وكلهن صالحات للإغراء، ولكنه مع ذلك قال:

ـ يساويها ربنا.



أقيمت الفيللا الثالثة على المدخل الجنوبي للبلد وانتقلت «سبيلة» من «عزبة العلمين» إلى حياة القصور. وفي ليلة فرحها تحولت القرية كلها إلى مجموعات من مجالس الحكماء، حتى الأطفال الصغار تحولوا في هذه المجالس إلى فلاسفة يرقبون ويتأملون الأمر في دهشة ويستمعون ويشاركون في الحديث، وكان محور الحديث كله: كيف تفتح أبواب السعد هكذا دفعة واحدة أمام الذين لم يكونوا في الحسبان!.. «سبيلة» هذه مثلاً، هل كان أحد يتصور أن الله يتوب عليها من اللف في الغيطان بإبريق العرقسوس حيث تسقي الأنفار أيام الحصاد ما يبل الريق نظير حزمة أو حزمتين مما يحصدون! وحيث يتجاوز السقي إبريقها فتسقي من ريقها ومن لمس جسدها!..

كان الجميع يعتقدون أنها لا يمكن أن تتزوج في يوم من الأيام فإذا بها تصبح سيدة بمعنى الكلمة، وإذا بمن كن يعطفن عليها يأملن في أن يكنّ بعض وصيفاتها، هذه حكمة عميقة ودرس من السماء وهي أيضاً من علامات الساعة: أن تنقلب الأوضاع والمعايير هكذا رأساً على عقب. ولكن السؤال الذي لم يكف عن النباح في أدمغتهم: كيف تم هذا؟.. فليس لدى «سبيلة» ما تنفحه لحمدي

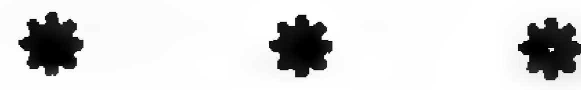
العرايشي مقابل الإيقاع بشلادة في حبائلها؟!.. غير أن شبان القرية الخبثاء لفتوا أنظار آبائهم إلى أن «سبيلة» هي في الواقع معشوقة «حمدي العرايشي» وأنه خدمها مجاناً ليسترها فتظل بالنسبة له بمثابة بئر الساقية الذي يحتجز الماء في جوفه لتوصلها قواديس حمدي إلى جيبه هو ورغم أن أحداً لم يكن قد رأى دليلاً قاطعاً على صدق هذه الإشاعة إلا أن الجميع لم يجدوا تفسيراً أقرب إلى المنطق منه فصدقوه دون مناقشة!

•

تحيرت «وجنات» ماذا تفعل، إنها أميز عن غيرها، تعرف المدينة قبلهن وطبعها طبع مدني كما يشهد الجميع، وتفهم في السيما والأفلام التلفزيونية وتعرف جيداً كيف ترضي زوجها وتحفظ دواوين من حوار العشق الساخن، وتزين نفسها حتى يراها ويحسها الأعمى.. فكيف استطاعت هذه البنت السنكوحة أن تستولي على زوجها هكذا؟ لقد مضى شهر في أثر شهر لم يتصل بها وإن كان يبعث لها السلامات والتحيات. ولكنها كانت أشد من «فكيهة» وعياً بطبيعة زوجها؟ فهو ثور، حيوان جنسي لا يشبع، ومثله لا يرده القديم عن الجديد بحال، فليذهب إلى الجحيم طالما أنها ضمنت مستقبلها المادي. ولم يمض ثلاثة شهور على غياب زوجها حتى صارت كالنمرة المحبوسة في قفص، وكان «حمدي العرايشي» يراقبها من بعيد في شماتة، وكان يعرف أن عشرتها لشلادة بخشوان - باعتباره ثوراً - قد خلق منها لبؤة كبيرة.. ثم أنه راح يرقب الصراع الخفي بينها وبين «فكيهة» في اجتذاب كبار التجار، حتى أنه لاحظ الفرق الجوهري بين الرغبتين: فإذا كانت فكيهة تجتنبهم لابتزاز أموالهم فإن «وجنات» تجتنبهم لابتزاز دمائهم. كان يعرف هذا ولا يتكلم فهو في الواقع مشغول بمزاج «شلادة

بخشوان»، ومشغول أيضاً بما آل إليه حاله..

ذلك أن نجم «حمدي العرايشي» قد أصبح ساطعاً في العب كله، وأصبح معششاً في بطون القرى والبلاد والعزب المجاورة فتسعين في المائة من أبقار ومواشي هذه البلاد ملك له وإن كانت في حوزة الآخرين، وكان إلى ذلك ذا نفوذ وسلطان كبيرين، كان - وهو التمورجي - يستطيع أن يتحكم في مصير الطبيب ومدير المستشفى، ويصل تأثيره إلى أعلى من ذلك بكثير.. وكانت العربة الفورد ذات الأصول النبيلة قد استراحت من أقدام الحفاة وغلظة مؤخراتهم، وتغيرت قطعها وتغير لونها، وصار يركبها ويقضي بها مشاويره مرتدياً الجلباب الصوف والعباءة، وكان في الأيام الأخيرة قد بدأ يكثر من المشاوير خارج البلدة، ويتودد إلى الناس كبيرهم وصغيرهم على غير العادة، وأحس الناس أن في الأمر شيئاً سوف تسفر عنه الأيام القليلة القادمة.



كان «شلادة بخشوان» قد بدأ يفتقد «حمدي العرايشي» ويقضي الساعات في انتظاره، فما إن التقى به حتى أخذ يعاتبه فإذا بحمدي يقول له:

- أنا أصلي عملت مشروع وعايز نفسك معايه.

- خيراً؟

- رشحت نفسي.

- فين؟

- لمجلس الشعب.

ـ بتتكلم جد؟

ـ طبعاً.. والدايرة تقريباً في أيدي.

ـ ربنا معاك.

ـ نفسك معايه برضه..

ـ نفسك معاية أنت..

ـ أنا خدام..

ـ أنا مش مبسوط.. البنت طلعت مش هي!

ـ سبيلة؟.. إزاي؟..

بخبث والتواء:

ـ الوزة من قبل الفرح مدبوحة!

ـ مش ممكن.. وإيه اللي مسكتك من نهارها؟

ـ مكنتش متأكد كويس.. لكن دلوقت متأكد قوي!!

ـ غريبة.. وحتعمل إيه؟

ـ الله يسهل لها.

لمح الخيال الشيطاني في دماغ حمدي:

ـ فردة بلغة.. غيرها أحسن منها. عندي أكثر من واحدة.

ـ المرة دي بقى.. لازم أنا إللي اختار.. وأشوف.

- وماله.. يساويها ربنا.

وشهدت قرية «البريمة» مهرجاناً سرياً لم يسبق له مثيل. كان «حمدي العرايشي» يواصل الليل بالنهار داعياً إلى انتخابه عضواً بمجلس الشعب وفي نفس الوقت باحثاً عن عروس لشلادة بخشوان. في كل يوم كانت الأخبار تصل «إلى شلادة» عن فلانة بنت فلان وفلانة أخت فلان وفلانة شقيقة زوجة فلان، ويسمع أوصافاً لهذه وتلك، ولكنه يصر على الرؤية والمعاينة والاستماع.

وكان «حمدي» يستطيع إنهاء الأمر على أسرع وجه، لكنه أجل ذلك إلى أن ينتهي من المهمة الكبيرة التي يقوم بها.

ويوم الانتخابات كان له العجب. كانت البلوفرات الأنيقة والجاكتات الشمواه والكرافتات السولكا قد زحفت في طرق ودروب، وشرقت وغربت يحملها المقاولون والتجار والسماسرة، وأمام كل لجنة في كل بلد تابعة للدائرة كنت ترى وفوداً من مؤيدي «حمدي العرايشي» يباشرون مهماتهم في سيمفونية رعوية غليظة. وكان منافسه على الدائرة لا يتصور - وهو أستاذ الجامعة الكبير وابن عائلة لها في السياسة باع طويل وفي خدمة الجمهور باع أطول - أنه يمكن أن ينهزم أمام شخص كهذا، وكان وقع الصدمة خفيفاً حين أعلن أنه لا بد من الإعادة بينهما وفوجىء أستاذ الجامعة وهو يمارس نشاطه بوفود من «حمدي العرايشي» تزوره في ود، وتعرض عليه التنازل والاحتفاظ بماء وجهه، وفي مقابل ذلك يأخذ كل ما صرفه، فغضب الأستاذ وطردهم شر طردة. وكان المبلغ في جيوبهم على أهبة الدفع فقرر «حمدي» أن يصرفه في الدعاية، فأخذ يصلي في كل مسجد فريضة ويعطي المنح بلا حساب وانطلق رجاله

يوزعون الفانلات الملونة على الفقراء وكانت لديه بالة من البلاطي المخلوعة من لوردات انجلترا وأمريكا فوزعها على كبار رجال العائلات عشية يوم الانتخابات.. وهتف الجميع باسمه.

وحين أنيعت النتيجة وتأكد «حمدي العرايشي» من أنه قد صار نائباً عن الدائرة، بدأ يتفرغ لشلادة بخشوان. كان على موعد مع عشرات الفتيات اليتيمات، جئن لتقديم التهاني، فاحتجزن في القاعة الجوانية كلهن، كان الليل قد انفرد على كل الأطراف حينما جيء بشلادة بخشوان سراً لينتقي عروسه من بينهن، وكن جميعاً يعرفن أنهن سيخضعن للاختبار، وكن ينظرن إلى بعضهم البعض في حرج مكشوف.. ولكن من للبنات اليتامى بمن يحميهن من مثل هذه اللحظات؟!

صاحب السعادة اللص



صاحب السعادة اللص

ولدتني أمي في واحد من هذه المخازن التي آلت ملكيتها إلى «الحاج سعيد النمس»، وكانت في الأصل ملكاً لمحمود الوزان.. وكان «الوزان» متزوجاً من «جليلة الخشاب» أم «سعيد النمس» هرباً من زوجتيه السابقتين حيث أنجبت كل واحدة عدداً من الأطفال ضايقنه في عيشته وفي مزاجه، فالتقط «جليلة الخشاب» باعتبارها امرأة حلوة رغم بلوغها سن الخمسين، وباعتبارها نظيفة ولا أمل في أن تنجب له مزيداً من الأطفال، وإن كان على ابنها «سعيد» فيمكن اعتباره من جملة أطفاله.

كنت في ذلك الحين طفلاً يقول البعض عني أنني مجنون، ويقول البعض الآخر أنني جدع وواع، وكانوا جميعاً يرجعون شقاوتي وجنوني وكل شيء فيَّ إلى كوني يتيم الأب!. وكان «سعيد» هذا هو الآخر طفلاً ويتيماً أيضاً، لكنه كان شديد الهبل بحق وحقيق، فلم يقل عنه أحد شيئاً صالحاً، بل أجمعوا على أنه لن ينفع في حياته كما أجمعوا على أنني سيكون لي مستقبل كبير بإذن الله. كان يتخانق مع طوب الأرض ولا أحد يزعل منه أبداً، أبداً، لهبله من ناحية، وليتمه من ناحية أخرى. ولكن فجأة انتشر الخفراء في البلد يجمعون الأطفال من الدور ومن الحقول ليدخلوهم المدرسة

الإلزامية، وقال الناس كيف يكون ذلك؟ فقالوا لهم أن هناك رجلاً يدعى الدكتور «طه حسين» جعل العلم بالمجان، فهرب الناس أولادهم وخافوا، ذلك أن الحكومة لا يمكن أن تفعل شيئاً فيه مصلحة للناس، ولا بد أنها تتحجج بالمدارس وستأخذ الأولاد للسخرة أو لحراسة قصور الملك، وظلت أمي تفكر في تهريبي مدة طويلة إلى أن فوجئت بأن أحداً من الخفراء لم يطلبني بالاسم، فتركتني أجري خلفها في مخازن الوزان وأساعدها لقاء قرشين في اليوم. أما «سعيد» فإنه لم يهرب، بل فرحت أمه وفرحت البلدة كلها لأن المدرسة سوف تلمه وتحبسه بين جدرانها وتريحهم منه، الوحيد الذي لم يفرح لهذا هو «الوزان» وكان يقف في الحوش صائحاً بين الرجال في غضب:

ـ الحكومة دي مش لاقية لها شغلة!..

فيرد أحد الرجال الحكماء:

ليه بس.. عايزة تعلم الشعب القراية والكتابة.

فيستدير الوزان مشوحاً له:

ـ إحنا بندفع لأولادنا مصاريف.. إزاي الحكومة تلم الصيع الحافيين وتحطهم في فصل واحد مع ولادنا؟.. بقي اسمه كلام؟.. المدرسة دي حاجة خصوصية نظيفة، ميصحش يفتحوها على البحري.. الرسول صلى الله عليه وسلم قال: لا تعلموا أولاد السفلة العلم!

يرد رجل آخر:

- ده حديث مدخول يا عم الوزان..

فيصرخ الوزان:

- مدخول في عينك.. أنت إيش عرفك انت.

وتقول سيدة مسنة وهي تجمع نتف القطن من الأرض:

- على العموم الواد ابن جليلة ده عمره ما هو نافع.. دا ولد أهبل.. هو كل من دخل المدرسة..!

فيشوح «الوزان» من جديد ويتدحرج بقامته القصيرة إلى حجرته التي يجلس فيها لقابل التجار والفلاحين.

ولكن آه من هذه الأيام. ها هو ذا «الحاج سعيد النمس» قد صار شيئاً آخر، ورغم ذلك لا يزال شديد الهبل، أما أنا فلم أصر شيئاً، ولا زلت أسمعهم يصفونني بالجنون!. ووالله ما أنا بمجنون، وإنما الحياة هي المجنونة، والناس في بلادنا أكثر جنوناً. وهم يصفونني بالجنون لأنني أفهم كل شيء يدور حولي، وأطالب بحقي، وهم يعرفون أنني صاحب حق، وأن ما أحكيه عن «الحاج سعيد النمس» حق كله ومع ذلك يتهمونني بالجنون لهذ الأسباب! «فهل العاقل - كما يقولون - من يعرف ويسكت، ومن يرى ويتعظ، ومن يؤكل حقه فلا يفتح فمه؟». ويقول لك الواحد منهم إن حقك ضائع ولهذا وجب السكوت وإراحة البال. وأنا أقول أن حقك ضائع ولهذا وجب الكلام ولزم الجنون. والحاج «سعيد النمس» يتصور أنني شيء تافه في مملكته، وإنني إن كنت ناراً فلن أحرق مطرحي، ولهذا فهو أهبل. ولا قدرة للأهبل على الوقوف قبالة المجنون. فأنا المالك الحقيقي لهذه المخازن وإن كانت مفاتيحها في جيبه، وأنا الذي

يعرف كل شيء فيها وإن كانت دفاترها في درج مكتبه، وأنا الذي أعرف كيف آلت إليه وإن كان هو نفسه لا يتصور أنني أعرف.

أقول إن أمي ولدتني في واحد من هذه المخازن. وقد حكت لي كثيراً عن لحظة مولدي، ولكنني كثيراً ما أعتقد بأنني رأيت ذلك بعيني.. مجنون أنا؟.. ليكن.. وسوف أكرر أنني - وأنا في بطن أمي - رأيتها تحمل القفة على رأسها قادمة من الحوش الكبير متجهة إلى أحد المخازن، عليها أن تقترب من غرارة كبيرة واقفة يصعد من قبلها رجل يدق القطن بقدميه.. فحين يراها يفرد لها حنك الغرارة لتدلق هي قفتها فيها، وتستدير عائدة لتملأها من جديد، وكنت أرى عشرات الغرارات تتجاور وعشرات النسوة تجلبن لها القطن، وأرى هزال أمي ووهنها بينهن، وأسمع تأوهاتها ولعنها الحمل وسنينه.. فما كان مني إلا أن انتهزت فرصة مالت فيها أمي نحو الغرارة فارجة ساقيها قليلاً.. فلفظت نفسي مندفعاً إلى الأرض لكي أريحها من أحد الحملين، فما دامت هي مسكينة لا تملك أن تريح نفسها من حمل القطن فلأكن لطيفاً وأريحها أنا من حملي، وقيل أنني «ابن سبعة» أي سبعة أشهر فقط وأنني لهذا دقيق الملامح صغيرها مهما كبرت بي السن، ضئيل الجسم نحيفه، ولهذا أطلقوا على اسم «أبو سبعة» وهكذا لم أعرف لي اسماً آخر، وانتظرت أن تأخذني الجهادية فلم تفعل، وأنا الآخر لم أسأل، ولكن هناك من قال أنني بدون شهادة ميلاد، وهناك من قال أنني معفى من الجهادية لإعالة أمي، فلم يدهشني ذلك، إنما أدهشني أن يكون للإنسان شهادة ميلاد.. فمن أين يعطى هذه الشهادة؟.. لا أدري.. وما لزمتها؟.. لا أدري أيضاً.. وهل هذه الورقة التي يحملها الإنسان في جيبه هي التي تثبت أنه مولود وحي يرزق!. إنها بدع فارغة.. والطريف أن الناس يندهشون حين يعرفون أنني ابن سبعة ومع ذلك أعيش،

ويندهشون أكثر وأكثر حين يعلمون أنني بدون شهادة ميلاد، حينئذٍ يشهقون ويبدو عليهم الأسى قائلين: «أتعرف؟.. سيكون هذا سبباً في ألا تخرج لك شهادة وفاة».. فما يكون مني سوى الضحك الكثير.. فأنا الذي لم يهمني أمر شهادة الميلاد كيف يهمني أمر شهادة الموت؟.. بحق الله ماذا جرى للناس؟؟..

لكن كله كوم و«الحاج سعيد النمس» كوم وحده.. فأنا منذ اندفعت هابطاً إلى الأرض في مخزن «الوزان» لم أخرج منه حتى الآن، وأبلغ من العمر كما يقولون واحداً وأربعين عاماً، قضيتها كلها في خدمة الوزان ومن بعده «سعيد النمس». ولم أعرف لي حتى الآن دخلاً من خرج، فعند العري يكسيني وعند الجوع يطعمني من فضلاته ويكذب قائلاً: لقمته بلقمتي وجلبابه بجلبابي، وفي غير ذلك لا يريد أن يفتح مخه أبداً.. وهو يسخرني في الكبيرة والصغيرة.. بصراحة «يستكردني».. وإذا كنتم تريدون معرفة ما أعمل فأقول لكم أنني ظهرت مرة في التلفزيون، نعم ظهرت غير أنهم كانوا في التمثيلية يسمونني الطواف وكانت العائلة التي أخدم فيها اسمها «عيلة الدوغري»، غير أنهم نسوا كثيراً من الأعمال التي أقوم بها في خدمة «الحاج سعيد النمس»، ومع كل فأنا أثقل بالي حتى أشوف أخرتها معه ولا بد للمجنون أن يغلب الأهبل، وحين أضرب ضربتي لن يكون لي ذنب حيث صبرت عليه صبر الإبل، ولم يحفظ الود، وطلع فيها مرة واحدة.

طبعاً تريدون معرفة كيف طلع فيها مرة واحدة، سأقول لكم بعد أن أشرب هذا الحجر.. بالمناسبة سأسقيكم تعميرة من تعميرة الحاج شخصياً، خنصرتها منه وأنا أسقيه، كنت أضع فمي فوق الحجر بحجة أنني أنفخه لأبكر الجوزة، ويكون لساني قد التقط

التعميرة، وفي الحال أدلق النار فوق الحجر والحاج يشد نفس المعسل بشدة ويتلمظ.. و.. وقبل أن أروي لكم كيف طلع فيها مرة واحدة أحب أن أعطيكم فكرة عن شيء ضروري: ذلك أنكم تعلمون أن «الحاج سعيد النمس» ليس إنساناً يستحق الخدمة من الأصل، وكل من في حوزته ينفر نفوراً إلٰهياً من خدمته. أنتم لا ترون حمارته ساعة يركبها، تركبها عفاريت الأرض، وحين لا تجد فائدة من هياجها تحزن رامية جسدها فوق الأرض وليضربها بالحذاء أو بالرصاص فهي لن تقوم.. فكان يتوعدها بالويل، هو أنه سيشتري سيارة خنزيرة ويدوسها بها كما نذر. وأنتم طول عمركم تستخدمون الأشياء بأن تمسكوا بها وتفعلوا ما تفعلون، أما هو فإن الأشياء كلها لا تطيق لمسه، فجأة ينقلب البراض من يده، يقفز كوب الشاي وينكسر، تنفلت القلة من فمه.. فإذا به يملأ الدار بالأزرار، يضغط على زر ويضع بوزه في ماسورة الثلاجة فيشرب، يضغط على زر فترتفع الصينية بالفنجان فيشفط منه الشاي والقهوة، يضغط على زر فتنار الحجرة، ينفتح التلفزيون، تسير العربة، تنفتح الخزينة، الشيء الوحيد الذي لم ينفع معه الزر هو الجوزة، ولولا هذه الجوزة لاستغنى عن خدمتي من زمان. ويا للفرجة التي كانت تحدث ساعة يرتدي جلباباً، ما من جلباب يتضح أنه لائق عليه، وما من ثوب أو حذاء إلا وملعون بائعه النصاب الغشاش.. فإذا به الآن يهجر الجلابيب ويجيء الترزي لحد عنده ويفصل له الحلل والبلاطي والعباءات.. ويذهب إلى مصر بالخنزيرة لينتقي الأحذية الغالية.. و.. أو ترون إلى الكلب يضرب المثل في الوفاء ويمتزج بمزاج صاحبه ويشم رائحته؟.. تفرجوا إذن على كلبه، هذه هي المرة الوحيدة في حياتي أرى فيها كلباً يضرب المثل في عدم

الوفاء، لا يجري نحو «الحاج نمس» ولا يطوح بذيله ولا يفعل شيئاً بل يهوهو عليه كأي رجل غريب.. فإذا «بالحاج نمس» يسافر إلى كلية الضباط ويشتري.. «كلب هول» من كلاب البوليس يصحبه معه في كل مكان ويصرف عليه في اليوم الواحد ما يصرف عليَّ أنا في شهر!

وهكذا ترون أن كل شيء ها هنا كان يستخسر الخدمة في «الحاج سعيد النمس» وكأن كل الناس والأشياء متفقة فيما بينها على ألا يفيدوا هذا الرجل بشيء ومع ذلك. فإن ثروة الحاج «سعيد النمس» تضاعفت بشكل جنوني.. وكأن الكون كله قد اتفق مع بعضه على أن يوقع بكل الفرص الرابحة بين يديه وحده دون سائر البلد!.. ونحن جميعاً نعرف السبب، وحتى الذين يسرقهم «الحاج سعيد النمس» يعرفون جيداً أنه يسرقهم ومع ذلك يساعدونه بل ويقيمون له الاحترام! وهو من هبله يتصور أنهم لا يلحظون ألاعيبه وأنهم يحترمونه بحق، إنها لم تدخل عليَّ أنا المجنون فكيف تدخل على من هم أكثر جنوناً مني؟.. بعد ذلك أشرب هذا الحجر وحدي، حجر من نفسي..!!.. أقول أنه من كثرة هبله يتصور أنني حين شاركته في تضليل الفلاحين كنت غائباً عن الوعي. كانت المحاصيل التي يوردونها إلى الجمعية الزراعية ـ وهو أمين مخازنها ـ تنتقل بجدعنتي أنا إلى مخازن «الحاج نمس» بيني وبينكم كنت أتصور في حال المبتدىء أن «الحاج نمس» يحفظ أموال الحكومة في داره خوفاً عليها من اللصوص، ولكنني عرفت اللص الحقيقي، وعرفت كل شيء من كثرة لطم الفلاحين لخدودهم وشق جلاليبهم، يحدث ذلك في مندرة الحاج أمامنا جميعاً، بينما هو جالس تتدلى المسبحة بين «ثنايا كرشه»، يقول للفلاحين أنهم بعد أن وردوا محاصيلهم

للجمعية فوجؤوا بأن الحكومة تطالبهم بها من جديد، يشخط الحاج فيهم، ينبه عليهم أنهم بصموا بأصابعهم على المديونية، وأن الدفاتر والأوراق هي الأصدق، فهي أوراق دفاتر حكومية لا تغش.. هل يجرؤ أحد على الإفتراء على الحكومة؟!..

لا طبعاً لا سمح الله يا حاج.. الحكومة على راسنا.. لم نقل شيئاً.

- أنت مطلوب منك كذا أو كيت.

- كيف.

هكذا يقول الفلاح وهو يشوح بيده قبل أن يسند ذقنه عليها. ثم يبدأ الحساب من جديد. تخرج الدفاتر، تنفرد الكشوفات، يلمع الخاتم الذهبي في يد الحاج وهو يطوح بيده فوق الأوراق، يحلف بالشباك الذي وضع يده عليه، تؤيده طرقعات المسبحة اليسر.. يقول الفلاح بعد تفكير عميق:

- هي الحكومة عايزة مني كام بالضبط؟.. عاوزة إيه بالجملة؟

- تاني؟..

هكذا يصيح الحاج في بأس وضيق، يتكرع بصوت قبيح. يسبح الله، يخجل الفلاح، يكاد يتنازل عن سؤاله، لكنه - إرضاء لضميره - يعود فيقول:

- عدم المؤاخذة أصل مش فاهم الحساب ده. أنا كنت أخذت سلفة كذا. كويس قوي.. الحكومة كانت عايزة مني أيه قبل كده؟..

تطول روح «الحاج نمس» يطلب شاياً، يتفضل بتقديم بعض

الأكواب لبعض المحترمين منهم، يعلق الابتسامة على شفتيه، يحكي موال كل يوم، حيث يتضح أن الديون قديمة، قديمة جداً، ومتداخلة في بعضها، فدين الإصلاح يجر معه السلفية، والسلفية كانت لها فوائد، والقواعد قد دفعت من محصول العام، وبقي دين الجمعية، ودين الجمعية له غرامة، وهناك إهمال حدث في كذا، له مصاريف إنقاذ قدرها كذا.. يتنهد الفلاح ينفخ من غيظ مكتوم.

ـ ماني عارف من الأول.. هو أنا حاطول حاجة؟... ما دامت الحكومة دخلت في الوسط عليه العوض.. ربنا يسلم.. ربنا يسلم.. إذا طلعنا منها ملط يبقى ربنا كرمنا.. ويخبط الفلاح على ركبتيه متطايراً من الغضب..

ـ يعني تفضل طول السنة تأخذ في سلفيات وتصرف وتفنطز.. والآخر يصعب عليك رد حق الحكومة؟..

ذلك ما يردده «الحاج نمس» في هدوء وابتسام..

ـ سلفيات إيه وزفت إيه يا ناس.. دي الحكاية كلها سلفية واحدة خدتها من سنتين ولا ما أعرف ثلاثة.

ـ أهو خدتها وخلاص.. الحمد لله إنك اعترفت بأنك أخذت..!

ـ ربنا يتوب علينا بقى.. أنا حازرعها فواكه زي بتاع مجلس الشعب.

ـ روح إنشاء الله تزرعها شوك.

وهكذا كانت محاصيل البلدة كلها تذهب إلى مخازن «الحاج نمس» وتأخذ الحكومة بدلاً منها أوراق مديونات عليها بصمات ولا

تنتهي. الناس تنشال وتنحط من الغيظ لكن لا تفتح فمها بكلمة تكشف السر. الحق لله ربما متمخولة في الأمر، فأن تزيد المديونية هكذا بدلاً من أن تنقص رغم مواظبتهم على تسليم المحاصيل بكاملها أمر يثير الشك، الفلاحون لا يقرأون ولا يكتبون ويعتمدون على الله في كل شيء، وهم ليسوا أغبياء، وحين يضيق صدرهم تكاد الكلمة تنطلق من أفواههم قائلة «للحاج نمس».. «أنت لص» ولكن هذه الكلمة لا تنطلق أبداً، بل ينطلق بدلاً منها كلام آخر يدعو للحاج بطول العمر وموفور الصحة!

العبد لله يقول لكم لماذا زادت المديونيات على الفلاحين مرة واحدة.. لقد رشح «الحاج نمس» نفسه في الاتحاد الاشتراكي كما تعلمون، ورأى أن الميل كله في جانب خصمه، فصار يطلب الفلاحين إلى داره. وبعث منادياً ينادي بأن من لا يذهب إليه ستفوته فرصة العمر. في المندرة اجتمع خلق كثير، فأخذ يكلمهم عن الحالة وارتفاع الأسعار والعيد الداخل وكسوة الأولاد.. فاستكانوا جميعاً بعد أن كانوا متضررين. علق بعضهم بأن النواة تسند الزير ولكن أين هذه النواة. فقدم لهم الحاج كشفاً طويلاً من كشوف الجمعية، وصار يوزع عليهم الأموال، هذا خمس جنيهات وهذا عشرة جنيهات حسب أملاكه وعدد أولاده، وقال لهم إنها منحة منه نذرها لله، ولهم بعد ذلك أن ينتخبوه أو لا ينتخبوه.

تعلمون أن معظم الفلاحين في بلدنا يتركون أختامهم عند بعض الموظفين خاصة موظف الجمعية الزراعية.. هذه خصلة قديمة، وقد استغلها «الحاج نمس» أسوأ استغلال، ومنذ أن توسطت له «جمالات المنسي» وعينته في الجمعية الزراعية فرض على جميع الفلاحين أن يبقوا أختاماً، وقد فعلوا، وكان الواحد منهم يذهب إلى

سوق البلدة ضائقاً ليقابل صانع الأختام ويتفق معه، ويفاجأ بأن «الحاج نمس» جالس بجواره ويقول للفلاح في خبث: «طب روح أنت بقى يا فلان ما دمت مستعجل وأنا حابقى استلم الختم بتاعك».. ولم يكن يخطر ببالهم أن الحاج ينوي بهم شراً، ورغم أن شروره كانت تصيبهم دائماً إلا أنهم يوم الانتخاب صدقوه وهللوا وهتفوا باسمه. خاصة وأن الجمعيات الزراعية في البلاد الأخرى لم تصرف سلفيات لأحد في هذه الآونة، الأمر الذي أكد لهم أن المنحة من جيبه الخاص..

نجح طبعاً في الانتخاب، وصار أميناً للفلاحين على مستوى البلد، ومر عام في أثر عام والفلاحون يسلمون المحاصيل كلها ومع ذلك لا تنقضي المديونيات، فيجن جنونهم، ومن كان منهم على قدر من اللماضة طلب الكشف والحساب، فإذا ما جاء الكشف والحساب تاه في عشرين سكة ومائة حودة وألف باب فيصفق كفاً على كف ويطلب إنهاء الحساب خوفاً من أن يكشف التحاسب عن أعباء منسية، الواحد حين تنهال عليه كرابيج الحساب من دفاتر «الحاج نمس» يقول في نفسه «يا من يحوش عني» ويتمنى وقف الكلام بأي ثمن.. ولكن هل عرف أحدهم أن «الحاج نمس» أضاف على حسابهم كل ما صرفه في الدعاية الانتخابية هو واثنان آخران من موظفي الجمعية الذين يسيرون في موكبه؟.. أشك في أنهم يعرفون.. وأشك في أنهم لا يعرفون، أن الذي أكلوه وز.. وز.. طفحوه: بط.. بط..

اسمحوا لي بحجر من فضلكم.. أنا لست غرزجياً كما قد تتصورون!.. لا.. أنا مثلي كلما هفني المزاج جئت إلى هنا لأشرب حجرين بنفس واحد. وأنا لست أخدمكم الآن وأمسك لكم الجوزة

وأسقيكم لقاء أجر منكم أو من صاحب الغرزة، أنا أسقيكم جدعنة، وأنتم الأجدع.. مساء الخير..

يشهد صاحب هذه «الغرزة» وها هو ذا أمامكم فاسألوه - أن «الحاج نمس» جعلني يده اليمنى في كل شيء، فالغرزة بجوار الجمعية كما ترون، وكنت أجيء ها هنا في المساء لأضرب حجرين وأحمل الأجولة إلى مخزن «الحاج نمس» أتنكر يا عبد المعطي؟. قل لهم يا عبد المعطي عن أهل اليمن أنسيت؟ العيال الذين أخذتهم الجهادية وكانوا غلابة مثلنا.. ثم شحنتهم الجهادية إلى اليمن ليحاربوا أعداء لنا هناك لا أدري من هم، كان العسكري منهم يأخذ في اليوم خمسة جنيهات أو عشرة على ما أنكر.. لا.. لا أظن أن الضباط هم الذين أخذوا عشرة.. المهم أن كل عسكري من بلدنا هبش له مبلغاً محترماً من حرب اليمن، أولاد الأرامل مثلي، الذين كانوا يبيتون في عشش عزبة العلمين، عادوا من حرب اليمن وأنشؤوا لأنفسهم دوراً بالطوب الأحمر، واللبن، ولا زلت أذكره يوم كان «السيد أبو جلطة» يضرب ابنه العسكري ضرب موت ويقول له صارخاً: اشمعنى أنت ما تروحش اليمن يا ابن الكلب.. لازم أنت مشاغب وتاعب قلبهم عشان كده ما ودوكش». وكان الولد يصرخ ويجعر قائلاً: «والله يا بابا أبداً.. دي أصلها بوسايط» - أظن فهمت الآن يا عبد المعطي قل للبكوات إذن كيف كان «الحاج نمس» - باعتباره أميناً للفلاحين - يتوسط للناس كي يسافر أولادهم العساكر إلى اليمن.. الله أعلم ماذا كان يفعل؟ كنت أسافر معه إلى المركز دوراً والمحافظة دوراً آخر، ويدخل إلى ناس بلفائف الفطير وقوارير السمن البلدي، وأحياناً بأردب أرز، وحين نعود يذهب إلى ناس ويبارك لهم بأن أولادهم العساكر خلاص.. حيسافروا. أتعرفون يا

بكوات كم كان يأخذ من العسكري الواحد؟ قل لهم يا عبد المعطي. لماذا انخرست؟

أن البكوات ليسوا من المباحث إنهم من أهلنا وزملاء صبانا غير أنهم عاشوا في المدينة، أم أنك لا تتخلى عن النذالة؟.. لا تؤاخذوه يا بكوات فإن «الحاج نمس» هو الذي يحميه ويحمي هذه «الغرزة» وكلما هاجمها البوليس بكبسة ذهب وأفرج عن «عبد المعطي» وقال لهم دعوه يأكل عيشاً إنه غلبان ولا يرى الزبائن وهي تضع الحشيش!.. وحقيقة الأمر يا سادة أن «عبد المعطي» هذا هو الذي يشتري الصنف «للحاج نمس»، العمل الذي حزنت عليه أنا، وعلى فكرة.. هو صنف ليس كالذي تشربونه، إنكم لا تشربون - عدم المؤاخذة - إلا عطارة مصنوعة بالكبس، والدليل على ذلك أنني تعب صدري من تنفيض الجوزة بعد شربكم، عدم المؤاخذة في المرة القادمة دعوني أنا أختار لكم الصنف الجيد فأنا أفهم فيه وعبد المعطي يعرف ذلك، ولولا أنني أوافق على التعميرة التي يحضرها لما قبلها الحاج.

هوه.. كيف تقولون أنكم كنتم زملاء الحاج في الدراسة؟ هذا عيب والله.. فناس مثلكم كالورد لا يمكن أن يكونوا زملاء لمثل هذا الرجل. صحيح أنه الآن يستطيع أن يشتري أجعص من فيكم.. هل الدنيا بالفلوس؟.. إنها لا توجد إلا مع التيوس. ماذا؟.. طبعاً.. قلت لكم أعرف الحاج نمس من قبل أن يولد.. نعم دخل المدرسة كما تقولون ولكنه اكتفى بالإبتدائية فحسب، ليتكم فعلتم مثله.. هأنتم ذا أفندية محترمين تحملون الشهادات وفي رؤوسكم علم وفي صدوركم حلم ولكن ماذا فعلتم إن علمكم وحلمكم لا قيمة لهما.. وأنتم الآن تشربون لكم حجرين بفلوسكم وهذه حريتكم، لكن الحاج نمس

يستطيع الآن يتحكم في مزاجكم. لماذا اندهشتم هكذا؟ ربنا لا يسوقه الآن، فيكفي نظرة واحدة منه لكي يتملعن عبد المعطي ويزعم لكم أنه لا يسقي حشيشاً، ويظل يرش الماء على الطريق حتى يغرق ثيابكم ويطردكم. لا تغضب هكذا يا بيك فأنا أملأ يدي من كلامي.. لو ذهبت أنت وهو إلى نقطة البوليس أو المركز فإنك بشهادتك العليا وبذلتك المحترمة ـ سوف تقف ذليلاً ويجلس هو واضعاً رجلاً على رجل، وكلامه يمشي، فعدم المؤاخذة من أنت؟..

تريدون معسلاً آخر؟. هات عشرة حجارة يا عبد المعطي نعم؟. تريد أن تعرف متى بدأ «الحاج نمس» يتفرعن؟. سأغير ماء الجوزة وأطجن النار ثم أجيء لأحكي لك.

«شوفوا يا بكوات» «الحاج سيد النمس» لم يتفرعن هكذا إلا منذ وقت قريب، منذ متى يا عبد المعطي ألا تتذكر؟. في الأول كان يمشي جنب الحيط، ويؤدي الفرض بفرضه، وكنت أتأمل في عينيه طول الليل بينما أسقيه، فأجد أنه مشغول وإنه مكسور، طبعاً مكسور، الله يخليه ويحرسه «أنور السادات» ضرب أهل القوة في البلد، وجاء بثورته فأحببناه وأحببناه لأنها خلصتنا من الذين كانوا يشخطون فينا ويضربوننا بالشلاليت، كان الخوف يطل من عينيه، وكلما تجرأ ولد من تلاميذ المدارس ـ الذين كثروا هذه الأيام، وردد أمامه كلاماً عن الاختلاسات المنشورة في الصحف أو عن رجال يقفون أمام المحكمة كان يصيبه الرعب وكنت أسمع كركبة بطنه، وكنت أسأله: فيم تفكر يا حاج؟.. فيقول أنه مثقل بالديون.. وأن وراءه أوراقاً وكشوفاً ناقصة. ثم يجيء بالأوراق ويظل يعبث بها طول الليل وينظر لي من تحت لتحت، وكان دماغي يقول لي أنه يحاول تصليح هذه الدفاتر واللعب فيها.

وكان قد جمع ثروة هائلة من محاصيل الفلاحين، وثروة هائلة من أهل اليمن، كان يأخذ ربع المبلغ الذي يقبضه العسكري العائد من اليمن، الجزء مقدماً والباقي يأخذ به وصل أمانة على ولي أمر العسكري، ويعتذر قائلاً أن هذه الفلوس ليست له إنما هي لأصحاب النصيب. وكنت أعرف أنه مشغول بأمر تخبئه هذه الثروة عن العيون المتلصصة عليه. فكيف يخفيها؟.. لقد أكثر من الصلاة أمام الناس. فجأة ينهض طالباً سجادة صلاة، ليخطف ركعتين بسرعة الصاروخ، ليصل إلى ختام الصلاة هو في الواقع لم يكن يريد الصلاة بل كان يريد ختام الصلاة ليقول فيه كلاماً موجهاً إلى الله وهو في الواقع موجه للجالسين. يقول ربي إفعل كذا وكذا وخلصني من كذا وكذا واجعل أولادي كذا وكذا، فنفهم نحن الجالسين معه أنه محروم - يا ولداه - من لقمة العيش. وكنت أذهب إلى الاتحاد الاشتراكي لأناديه يكلم زوجته. فأجده جالساً يتكلم كلاماً صغيراً، يشتم فيه عبد الناصر شتيمة غير لائقة، فلما كان الرئيس السادات يخطب ويمدح في عبد الناصر ويتكلم عنه باحترام كان «الحاج نمس» يحتار ويظل طوال الليل في دورة المياه إلى أن جاء ذلك اليوم.

أيقظني في الصباح لأذهب معه إلى المدينة، كانت ملامح وجهه قد بدأت تزداد غلظة وكلاحة، وغادرها الخوف والتواضع الكاذب.. كان يكاد يقفز من كثرة السعادة، فقلت لعله أوقع بصفقة جديدة، لكنه ركب الحمارة المسرجة بعد أن قمت أنا بتهدئة خاطرها وإقناعها بتحمل مؤخرته، ورحت أجري خلفها محاولاً التكهن بسر هذه السفرة المفاجئة. وعند النقطة الثانية نزلنا وتركنا الحمارة أمانة لدى الخفيرين المرابطين في النقطة الثانية وركبنا القطار إلى

المدينة، حيث تناولنا غداء عظيماً مكوناً من أم الفلافل الساخنة والفول بالزيت الحار والليمون والسلاطة المعتبرة، وانتقلنا إلى قهوة تسمى بورصة الأمانة يملكها أمين التنظيم المسؤول عن مركزنا، احتسيت الشاي واحتسى هو القهوة والشيشة، ثم همس مرات كثيرة في أذن الجرسون، الذي همس بدوره في أذن ولد يبيع الجرائد، ثم جاء الولد بعد برهة وهمس في أذنه فأعطاه جنيهين، فخرج الولد وعاد بكتاب سلمه إلى الحاج الذي أخذه وصار يتصفحه كأنه يريد احتضانه، ثم يغلقه ويضعه في جيبه، ثم يخرجه من جديد ويتصفحه ويعيده إلى جيب الصديري.

أنا لا أقرأ. لكني سمعت طراطيش كلام بين الجرسون وبائع الجرائد فهمت منه أن هذا الكتاب اسمه «الأسرار».. لا يا رب.. اسمه «الأسوار».. نعم.. «الأسوار».. أظن أن اسمه كلام عن أسوار.. أو تحت الأسوار أو فوق الأسوار لا أدري، لكنني متأكد أن اسمه فيه كلمة الأسوار، وفيه أيضاً ـ والله أعلم ـ كلمة حمار.. أو ما يشبه كلمة حمار.. حمار وراء الأسوار أو ما أشبه. المهم أننا لما انتهينا من شرب الشاي والشيشة قام الحاج ودفع الحساب والبقشيش للجرسون ومشى منتفخ الصدغ والرقبة وأنا خلفه أقول في نفسي والله لأعرفن سر هذا الكتاب. وصار الناس يروحون ويجيئون ويتكلمون مع الحاج ويدفعون نقوداً، من خمسة جنيهات إلى عشرة. كل ذلك من أجل أن يحصلوا على الكتاب.. بعيني هذه رأيت واحداً من مقاصيف الرقبة يدفع للحاج خمسة جنيهات ليشتري منه الكتاب. بعدها سافر الحاج إلى مصر. وعاد بعد بضعة أيام يحمل ربطة كبيرة من هذا الكتاب، أخذها في داره وصار يوزع النسخة بخمسة جنيهات ويجيء لها ناس من بلاد وعزب مجاورة. وصرت

أرى الحاج يلتقي ببعض الناس ويسلم عليهم بحرارة ويقول: هيه قريت؟؟. فيصفق الآخر بيديه في عجب: شوف يا أخي مين كان يتصور أن عبد الناصر يطلع حرامي؟. وفي يوم رأيت ابن العمدة الكبير يجلس بين مجموعة من رفاقه في الصياغة وهو يقرأ لهم في هذا الكتاب فوقفت استمع فكلما رآني أحد من الفلاحين يقف هو الآخر ويستمع، ونسمع اسم عبد الناصر والبنك والشبك الذي سرقه، فتكفهر وجوهنا، وقال واحد من الفلاحين بقرف:

- إيه الكلام الفاضي ده؟.. بقي ده اسمه كلام!..

وقال واحد آخر:

- قلة حيا.. اذكروا محاسن موتاكم..

وقالت سيدة عجوز:

- أخص عليكم وعلى تربيتكم.. بقى كده.. تلطخوا وش الراجل وهو ميت!.. أخص عليكم.. اتقو..

وتسحب ولد تلميذ - من أبناء العمدة أيضاً ولكن من زوجة أخرى غير أم الصايع الذي كان يقرأ.. فخطف الكتاب وانطلق يجري وهم يجرون وراءه.. فلما أوشكوا على اللحاق به مزق الكتاب ورماه في الترعة. انتشر الكلام في البلد، وحدثت بسببه خناقات كثيرة، وكان الحاج نمس يقف في الشارع ويصيح بأعلى صوته:

- دي حرية. أحنا في عصر التوموكراطية.. والمستور مصيره يتكشف.. إيه بقى.. طلع حرامي.. أحنا مالنا؟

وكان وجه «الحاج نمس» يقول نيابة عن لسانه: مش أنا

لوحدي اللي حرامي، وعرفت أنا أن هذا الكتاب كشف برقع الحياء عن وجه اللصوص كلهم، وأراح ضميرهم، وجعلهم يصنعون فرحاً كبيراً في البلد لكي ينشغل الناس بسرقات الكبار عن سرقات الصغار أمثالهم. هم أيضاً في هبل الحاج نمس.. ويتصورون أننا لا نفهم.. عيب على هذا السخام الذي نشربه.

ولع يا بك.. بذمتي وديانتي أن الظروف كلها تخدم «الحاج نمس» وتنصره علينا جميعاً، تصوروا.. المعروف أن كل جمعية تعاونية زراعية لها - كما يقولون بما يسمى بمجلس الإدارة.. إلا جمعية الحاج نمس لم نعرف لها مجلس إدارة أبداً، إنما تعرف لها أعضاء فقط، الأعضاء طبعاً هم الفلاحون.. وتسأل: أليس للجمعية مجلس إدارة يا حاج سعيد؟.. يشخط فيك بصوت غليظ: «أمال يا جحش.. فلان وعلان وترتان ويحكي لك مجموعة من الأسماء، تعرفهم أي نعم، لكنهم من الناس الكسر.. أجدع من فيهم لا يعرف الألف من النبوت. وفيهم رجل عجوز إذا جلس أمام التلفزيون ليلة بحالها وسألته ماذا رأيت أو ماذا سمعت يقول لك: «والله ماني عارف أهو خرفشة مخ والسلام عشان الواحد ينام». والمصيبة أن كلهم هكذا، تعودوا على الصمت. تفرج عليهم ساعة يحضرون ما يسمونه بالاجتماع، وحتى النظر يختلسونه إلى بعضهم البعض في أدب، وكأنهم يخافون إن تكلموا أو قلوا حياءهم فسيطردوهم من على هذه الكراسي.. أقسمت بالله، هكذا يكون الفلاحون في بلدتنا. ولكن هؤلاء ذنبهم، أنهم لم يتفلحسوا ويرشحوا أنفسهم لمجلس الإدارة. إنما هناك من جاء بهم وقال لهم: أنتم الآن أعضاء مجلس الإدارة. قل لهم يا عبد المعطي عن تلك النادرة المشهورة في البلد. لقد حدثت أمامك، يوم كان مجلس الإدارة هذا مجتمعاً وجاء بعض

الفلاحين يطلبون عوناً لتسميد الأرض.. يومها.. يا لهوي.. كان الحاج نمس قد تصرف في كل شيء ولم يبق في مخازن الجمعية سوى السقف والقاع، أيداريهم السكات ويلاطفهم حتى تمر بسلام؟.. لا.. لقد شخط فيهم وتهجم عليهم.. فبكو.. فما الذي فعله السيد عضو مجلس الإدارة العجوز؟.. وقف وراح يشتم في الفلاحين بلا سبب، فيقول له الناس وأنت ما لك؟.. فيقول كيف يشتمون زميلي وأسكت؟..

ولع يا بيك.. والمشرف الزراعي.. طبعاً يا بيك أنتم تعرفون أن المشرف الزراعي هو مدير الجمعية، وأهله صرفوا عليه دم قلبهم حتى تخرج في الكلية وصار مشرفاً. بقدرة قادر وعدنا الله بمشرف من ولدان هذه الأيام، شعر مسبسب وبنطلون مرقع بالجيوب والكبسون من كل ناحية، يركب الحمار الحديد، أقصد الموتوسيكل يتنطط به طول النهار هنا وهناك. يذهب إلى المركز ليدخل السينما مع بنت سنكوحة من بنات البندر، وكان لذلك يريد فلوساً كثيرة وكان «الحاج سعيد النمس» يدبر له كثيراً منها، كان يعطيه باستمرار كلما احتاج، ولما حدثت الضجة الأولى واكتشفوا أن شكل الجمعيات فاسد من أساسه داس «الحاج نمس» فوق هذا المشرف إذ قدم للمسؤولين أوراقاً أثبتت انحرافه فرفدوه. وجيء بمشرف غيره، ولد صغير أيضاً، والحقيقة أن أي مشرف زراعي مهما كبر فهو ولد بالنسبة للحاج نمس، وكان هذا الولد ـ أقصد المشرف الجديد ـ قد عرف ما للحاج نمس من سطوة وطول باع في الغش والتدليس وتزوير الدفاتر والكشوف، فدخل عليه دخلة طيبة إذ جاء إلى داره وبدأ صحوبية، أراد أن يدخل إلى الحاج من الباب الإنساني ولم يعرف المسكين أن هذا الباب هو أسود الأبواب في شخصية هذا الرجل، لقد فتح له عبه وأكرمه واستأجر له مسكناً بمعرفته،

وصار هو يؤدي عمله على ما يرام وفجأة.. جاء المفتشون وفتشوا ثم قبضوا على المشرف الجديد.. ولم نعرف إلى أين ذهب، لكن الحاج ظل أياماً طويلة يترحم عليه، ويتكلم مع الناس في الاتحاد الاشتراكي حول المسؤولية التي فرط فيها المشرف. وكان ما يسمى بمجلس الإدارة يتكلم عن شيء يدعى مشروع الائتمان الزراعي التعاوني، وشيء يدعى المؤسسة العامة للائتمان الزراعي، وشيء يدعى المؤسسة التعاونية الزراعية العامة، وشيء يدعى التسويق التعاوني، وشيء يدعى الاستغلال الزراعي وتنظيم الدورة الزراعية، وشيء يدعى مشروع تنظيم الاستغلال الزراعي.. والواقع أن الحاج هو الذي يتكلم عن كل هذه الأشياء التي يقول إن الجمعية تتبعها وتخضع لها، وبقية الأعضاء لا يفهمون شيئاً فهم أنفسهم لا يفهمون حتى بطاقات حسابهم التي يحملونها في جيوبهم.

تريدون معرفة المزيد من أخبار ونوادر «الحاج سعيد النمس»؟.. إذن فهات عشرة حجارة يا عبد المعطي، البكوات يبدو أنهم من عتاولة الحشاشين. وهذا شيء غريب، فقد كنت أظن أن شرب الحشيش مزاج لنا وحدنا نحن الغلابة فإذا بالأفندية لا مثيل لهم في شربه. ولكن ما رأيكم في هذه «التعميرة»؟ تفرجوا أما يعجبكم، أقطع ذراعي كله أن كنتم تجدون لها مثيلاً في القاهرة، إن حشيش القاهرة هو أسوأ حشيش، لأن البضاعة حين تجيء مهربة تجيء أساساً عن طريق الأرياف، والرؤوس الكبيرة المتاجرة في الصنف تقيم أساساً في الأرياف وتحتجز لنفسها أجود الأصناف، ما يباع في القاهرة باثني عشر جنيهاً يباع في بلدتنا بأربعة جنيهات فقط، أنت تأخذ «قرش» الحشيش الزيت المعتبر باثنتي عشر جنيهاً من «مصطفى زقزوق»، وهو هو بعينه تأخذه من عندنا بأربعة، أما أن

أردت ربع أوقية فالسعر يختلف. ويختلف أكثر إن أردت نصف أوقية. عندنا الخير كله. إن الحشيش الذي تضبطه الحكومة هو الحشيش «المسكوك» الذي يدفعه صاحبه رشوة للحكومة لكي تسكت عنه، إنه بدلاً من أن يرميه في الصحراء يسلمه للحكومة ويسلمها معه ولداً من صبيانه الأشقياء يقيمون به قضية يترقون بسببها ويحصلون على مكافأة. هكذا يفعل «الحاج سعيد النمس».

سأقول سأقول. ولكن اعلم يا سعادة البيك، اعلموا كلكم أن «الحاج سعيد النمس» لما انضربت مراكز القوة لم ينضرب هو، فهو لم يظهر نفسه كمركز قوة يجب ضربه، إنما ـ ولا تدري كيف ـ ظهر كواحد من ضحايا مراكز القوة هؤلاء. لقد ظل يسافر وحده عدة مرات، ويعرف، ويكشف الأسرار، وكان في بلدة مجاورة لنا جماعة من الطلاب يقيمون نادياً رياضياً ويجمعون له التبرعات ويضمون إليه أسماء رجال كبار من البلد ليجمعوا مزيداً من التبرعات على حسهم، وكان «الحاج سعيد النمس» قد اختير عضواً بمجلس إدارة هذا النادي الرياضي، وفي يوم أخذني معه وسافر إلى القاهرة، وصار يدخل أماكن ويقابل ناساً، ويختفي في شوارع ثم يعود إلى حيث انتظره في مقهى، وفي الآخر عاد برزمة من الورق ملفوفة عشرين لفة، وبعد عودتنا إلى البلدة أمرني أن أتوجه سراً إلى هذا النادي في منتصف الليل، وأن أتسلق سوره وأنزل إلى حوشه وأدخل من الباب الخلفي الذي يترك عادة بلا قفل، وأن أضع هذه الأوراق في مخزن الأدوات الرياضية وأعود في الحال دون أن يراني أحد، ولما سألته عن السر أمرني بالسكوت خوفاً على مصلحتي، ثم نفحني عشر جنيهات أطارت صوابي، وركبت العمارة ليلاً وفعلت ما أمرني به، وما كاد يطلع النهار حتى علمت أن

البوليس قبض على مجموعة كبيرة من هؤلاء الأولاد لأنهم خونة وكفرة وأشاول، نعم أقول لكم معنى هذه الأشاول، أنتم تعرفون الأشول، الذي يستخدم يده اليسرى، ولا بد أن هؤلاء الأولاد يستخدمون يدهم اليسرى ولذلك يسمونهم اليساريين وهذه تسمية بالنحوي لا أحبها.

الحق لله زعلت من نفسي وكرهت هذا الرجل. ولكن ربك كريم، ومصر فيها رجال طيبون، أتعرفون؟. لقد أخذ الأولاد البراءة وعادوا إلى دروسهم واتضح أنهم يحبون البلد وأنهم ليسوا أشاول، ولكن هذه البراءة لم تظهر إلا بعد أن أمن الحاج نفسه وأصبح رأساً كبيراً في البلدة وفي الآخر ـ كما تعلمون ـ زهقت الحكومة كما زهق الشعب من هذا الاتحاد الاشتراكي فألغته الحكومة، ودخل «الحاج نمس» حزباً من الأحزاب، وحاول ترشيح نفسه لمجلس الشعب ولكنه تعب، كان يصرف باليمين والشمال ويقول: «أنا مش عاوز غير الحصانة الدبلوماسية..» طبعاً تعرفون لماذا يريدها، لكي تمر عربيته دون تفتيش، ويسافر إلى بور سعيد ليشتري البضائع المستوردة، ويهرب الحشيش بحصانته الدبلوماسية، قولوا لي من فضلكم.. أنا حتى الآن لا أجد من يريد إفهامي معنى كلمة حصانة؟. يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن معناها حضرة صاحب السعادة اللص، لأن رجلاً «كالحاج نمس» حين يبحث عنها ويشتريها بأي ثمن لا يكون معناها إلا هكذا.. وقد حصل عليها تلك المفتري.. أتعرف كيف؟.. بطريقة شيطانية.. نعم سأحكي لك كل شيء فليس وراءنا اليوم غيره ومزاجنا، صحيح أنه ضد مزاجنا والكلام فيه يعكر المزاج ولكن هل نعدل مزاجنا إلا لنعرف كيف ننظر في أمر هؤلاء ونحتمل النتيجة؟

في ليلة كانت هي.. أقصد الليلة، الليلة التي تجيء كما نريدها ونحلم بها وتجيء دون أن نسعى إليها. ليلتها كان الصنف جيداً للغاية.. وكان «الحاج نمس» قد تطور في شرب الجوزة، فصارت «جوزته» جوزة هند برفاص، ثم وصلت إلى مرحلة أعلى، فصارت أبريقاً كبيراً من البنور الأصلي ثم خرمه من الجانبين وتم سده، من الفم بكاوتشه محكمة يخترقها القلب الخشب، الخرم الأول غطاه بقطعة مشمع ملتصقة من أحد طرفيها والطرف الآخر حر ليكون بمثابة رقاص تنفخه فيوسع للدخان المحترق، وإذا شفطت من الجوزة ينشد وينغلق الخرم، والخرم الثاني وضع فيه خرطوماً بمبسم من الفضة بدلاً من البوصة، أما المنقد الفخاري فقد صار تحفة من النحاس بقوائم من الحديد صنع خصيصاً له، به مخارم وبلكونات دائرية ترص فيها الحجارة، وبه بسطة من الحجر لتكسير قطع الفحم المشتعل، ومصفاة من الفضة بيد من العاج - ربنا يعطيك ويعطينا.

ليلتها سقيته طاقماً من التعميرة الزرقاء، أحسن تعميرة في البلد كما تعلمون ولا يشتريها سوى الأكابر وتذهب إليهم مع مخصوص. لكنه اشمئز منها، وقال لي: تعرف لمبة الجاز «الشيخعلي»، الموضوعة في المطبخ؟.. قلت: نعم. قال: هاتها، فأحضرتها، هي مستطيلة ولها قاعدة مكرنشة وقوامها مخروط كقوام المرأة. أمسكها وبرم قوامها في يده فانفصلت إلى قطعتين كانت إحداهما تلبس في الأخرى عاشق ومعشوق، نظرت في قطعة العاشق فوجدت بها ثلاث قطع كبيرة من الحشيش، بعضها أخضر وبعضها أحمر وبعضها أسود. قلت له: «ما هذه الدسة يا حاج». قال: «إنها عينة جاءته من ثلاثة أيام عن طريق بلبيس، ونسي أن

يختبرها ليبحث لها عن سوق بين صبيانه وقد تكاسل عنها لأن الكمية محدودة من ناحية وغالية الثمن من ناحية أخرى»، قلت: «آن أوانها». قال: «كرس منها»... فكرست منها عشرين حجراً أو ثلاثين لا أنكر.. وكانت خياشيمي قد امتلأت برائحة نفاذة هي خليط من رائحة الكافور ورائحة التفاح.. مساء الخير أهلاً.. طاخ ـ طيخ.. طاخ ـ طيخ.. صد ـ رد.. مني له، حتى لم أعد أقوى على حمل الجوزة، وكان ماء الجوزة بما فيه قطع الثلج قد صار بركة آسنة، واستغربت كيف نسي الحاج أن يقول لي: غيَّر ماء الجوزة في حين أنه في العادة يطلب تغييرها كل عشرة حجارة.

نظرت إليه من تحت لتحت، فرأيت أنه في سفر طويل، استعذت بالله وطلبت الستر من مثل هذه السفرات، فلا بد أن تنتهي بكارثة تعم على الجميع، من حسن الحظ أن هذه السرحات الخطرة لا تتكرر كثيراً، ولكنها حين تحصل فقل على الدنيا السلام، أذكر سرحة كهذه من سرحاته حدثت عام ١٩٦٧ الذي تسمونه أنتم يا أهل القاهرة بالنكسة، ليلتها ـ وأظن أنه أيضاً كان يجرب عيِّنة ـ أفاق فجأة وقال لي: بكرة إن شاء الله ستقوم بلفة.. قلت له: أين وأين؟. قال: لا شأن لك.. وفي الصباح ركبنا الحمير وانطلقنا على السكة، ولم يكن في الأمر حرب ولا ضرب، والحالة عادية والفلاحون يعزقون ويحرثون، والأبقار تأكل وتحلب، والغرز في كل السكك شغالة أربعة وعشرين قيراطاً، والأولاد في الجهادية وليس على بالنا شيء كذا.. أو كذا.. حكاية الحرب هذه هبطت علينا من الراديو، فجأة وجدنا الراديو يقول كلاماً فيه انفعال وفيه فايدة كامل وكارم محمود والله أكبر فوق كيد المعتدي، فانتبهنا، وقال لنا الذين يغوون الاستماع أن الأمر حرباً دائرة. مع من.. قالوا بيننا وبين

أمريكا.. ثم قالوا بيننا وبين الصهيونيين، ثم قالوا بيننا وبين الفلسطينيين والله أعلم بالحقيقة.

هذا الكلام طبعاً حدث بعد هذا المشوار الذي رحته أنا والحاج نمس، حيث نزلنا في بلاد كثيرة، وفي كل بلد نجلس في مكان قرب وحدة الاتحاد الاشتراكي حيث «الحاج نمس» مشهور فيه، وينطلق المنادي، فيجيء الناس، ويبيعون للحاج نمس مخزونهم من الحبوب: القمح والذرة والأرز والبرسيم والفول والشعير وخلافه.. اندفع الناس علينا كأنهم لم يروا القرش من عشرات السنين، وهذه الحبوب هي البقايا الصغيرة التي اختلسوها من المحصول قبل توريده للجمعية، فما صدقوا أن رأوا محفظة تنفتح أمامهم ببساطة، وكل واحد لديه خزين من الحبوب يأكلها، ولكنه في حاجة إلى قرش في يده، يشتري قطعة لحم، يشتري هدمة، يشتري حلاوة طحينية، يذهب للدكتور بالأولاد.. المهم أن الحاج اشترى كميات هائلة من الحبوب صنعت أفدنة من الأكياس والزكائب تنتظره في كل بلد بحراسة العمدة، ورجال الاتحاد الاشتراكي مجاملة له. وفي المساء خرجنا من آخر بلد إلى المركز حيث استأجر الحاج أربع عربات نقل كبيرة، أعطاها العناوين فسبقته إلى هناك. ولحق بها هو في عربة مخصوص. فقلت له: لماذا يا حاج تشتري كل هذه الحبوب.. ما لزمتها الآن؟.. فقال لي: لا شأن لك.. ثم أننا بعد أيام قليلة سمعنا بوقوع الحرب من الراديو وخذ عندك.. أيام سوداء عاشتها البلاد تبحث عن كوب الأرز بأي ثمن فلا تجده، وعربات التجار الكبار تجيء من المدن ليلاً لتشحن إلى مناطق بعيدة.

في تلك الأيام السوداء كان أولاد الوزان قد تخرجوا في المدارس وذهب بعضهم إلى الجهادية، وانتظر البعض الآخر أن

نبعث له تلك التي يسمونها عندكم في القاهرة بالقوى العاملة، ولكنهم أخذوها من قصيره واشتغلوا كتبة ومحاسبين عند «الحاج سعيد النمس» الذي كان يستأجر منهم مخازن أبيهم الوزان بتراب الفلوس، وقام بتوسيعها وبناء دورين آخرين فوقها، وصار بذلك أغنى واحد في البلاد المجاورة، وصار الكل ـ كبيراً وصغيراً ـ يتزلفون له ويقومون بخدمته حتى من غير أن يكلفهم أو يطلب منهم، الناس في بلادنا تفعل أفعالاً تصيبك بالعلة.

و.. ونفس هذه السنة السوداء كررها «الحاج نمس» في الحرب الثانية، بالمناسبة، هل تسمى حرب رمضان أم حرب أكتوبر؟.. هذه الحرب طبعاً قد سمعنا بها في الحال. ورأيناها.. نعم، كانت الطائرات تقع في بلادنا ونرى المدافع وهي توقع بها، ونسمع الراديو يذيع أخبار الطائرات من الأرياف. ويقول أوقعنا كذا وكذا في المكان العلاني وشمال الدلتا، وكنا نستغرب لماذا لا يذيعون عن الطائرات التي أوقعناها في بلادنا؟.. فلما بعتنا جواباً للراديو نسأل عن السبب ردوا علينا ـ وأذاعوا أسماءنا ـ وقالوا العجب.. فهل تتصور يا بك أن بلادنا هذه اسمها شمال الدلتا؟ لماذا إذن لم يقولوا لنا ذلك من قبل؟

المهم أن «الحاج سعيد النمس» قام ولف نفس اللفة قبل الحرب بمدة طويلة.. وفي هذه المرة كانت عرباته التي أصبح يملك العشرات منها هي التي تسافر هنا وهناك.

يرجع مرجوعنا الآن للحصانة التي حصل عليها الحاج سعيد النمس. فهل تحبون الاستماع إليها؟ إذن فهات عشرة حجارة يا عبد المعطي..

ولع يا بيك..

قلت إن «الحاج سعيد النمس» في تلك الليلة كان يجرب عينة جديدة، وإنه سرح سرحة عميقة طويلة جعلتني أستعيذ بالله منها. وكان من حجر لآخر ينفث الدخان في وجهي ناظراً إلي قائلاً:

ـ تفتكر يا أبو سبعة ممكن الناس تنتخبني؟..

قلت له بكل جرأة!

ـ لا طبعاً.. مين حينتخبك.. دا الكل بيشتم الاتحاد الاشتراكي وأنت منه.

قال:

ـ وإذا اشترينا أصواتهم؟

قلت:

ـ وتضمن ذممهم!

فسرح قليلاً، ونهض قائلاً في فرح:

ـ بس.. أنا حاخذ أصواتهم ببلاش.. من غير ولا مليم.

ثم أمرني بتغيير ماء الجوزة وإحياء النار في المنقد.

ففعلت ذلك على خير ما يرام. فقال لي:

ـ روح انده لأخويا رمضان في السر كده وتعال.

ـ اندهشت يا بكوات.. أخوه رمضان؟.. كيف؟ ما هذا التحول

الكبير؟. إن «رمضان» هذا أخ غير شقيق «للحاج سعيد النمس» فأنا لم أقل لكم ـ نسيت ـ أن «الحاج سعيد النمس» حين طلق أبوه أمه ظل وقتاً طويلاً بدون زواج كان رجلاً نذلاً، تنكر لابنه وترك أمه تتكفل به وتتزوج وهو معها دون أن يكلف نفسه شيئاً بالنسبة له، وسافر إلى بلاد بعيدة فقالوا أنه مات وقالوا الكثير، لكنه عاد منذ سنوات قريبة، عاد «والحاج سعيد النمس» رجلاً كبيراً، فحاول أن يتقرب إلى ابنه ويضمه إليه ولكن «الحاج نمس» رفضه وتنكر له، وقال له واحدة بواحدة، وكان الرجل قد بلغ الستين من عمره ولكنه محتفظ بقوته، فتزوج أرملة صغيرة السن راح يجري عليها ويشتغل ـ على حس الحاج نمس أيضاً ـ في الإصلاح الزراعي كخولي أنفار.. والغريب أن هذه الأرملة أنجبت له طفلاً اسماه رمضان، واندهش الناس من قدرة الرجل على الإنجاب وذهبت بهم الظنون مذاهب بعيدة، لكنه فاجأهم بولد آخر وثالث ورابع، أي أن «الحاج سعيد النمس» صار له أربعة أخوة لم يكونوا في الحسبان، ولما مات أبوهم لجؤوا إلى أخيهم غير الشقيق ـ الحاج سعيد ـ فشغلهم في مخازنه وأهانهم إهانة كبيرة لكنهم احتملوها وكانوا يسرقون في الخفاء وكنت أعرف ولم أكن أتكلم لأن هذا الرجل لا يستاهل الإخلاص.

وخلال هذه السنوات التي كان الحاج يكبر فيها ويتحول إلى غول كبير كان أخوه «رمضان» قد كبر هو الآخر ودخل الجهادية، كان قد مضى على تجنيده ستة أشهر يوم أعلن الراديو قيام حرب رمضان أو أكتوبر.. وبعد انتهائها كان الفرح قد عم البلاد، وسهرت بلدتنا هذه ليالي طويلة تحتفل برمضان وزملائه من الجنود، وكان «رمضان» يسهر معنا كل ليلة وفي كل مكان ويحدثنا كيف اقتحم

خط بارليف وأوقع - وحده - بأكثر من عشر دبابات، وكان من المنتظر ألا نصدقه أبداً في كل ما يحكيه لولا أن الإذاعة جاءت به وقدمته في الراديو وفي التلفزيون، وسمعناه وشهدناه في بلدنا هنا والمذيع يسأله وهو يحكى له نفس ما كان يحكيه لنا، وكان معه رجال كبار قدموهم لنا على أنهم رؤساء «رمضان» في الجهادية، وكانوا يؤيدون كلام رمضان ويعيدون فوقه أحسن منه.. حتى اشتهر رمضان في العب كله وصار معروفاً للكبير والصغير، وصارت بلدتنا تفخر به بين البلاد وصرنا حين نقول أننا من «البرامون شرق» يقولون لنا إذن فأنتم تعرفون رمضان صائد الدبابات.

خطفت رجلي إلى دار رمضان في آخر البلد، حيث يسكن مع أمه وأخوته في دار نصفها طوب أخضر ونصفها الآخر تعريشة من البوص والبغدادلي اخترعها المرحوم. ساعة وصولي كان «رمضان» صائد الدبابات جالساً يتعشى، أمامه على الطبلية طبق من البصارة ورغيفان وبصلتان وقطعة من الجبن القديم، وقلة ماء.

قال لي:

- خير يا أبو سبعة؟

قلت له:

- قوم معايا الحاج عايزك ضروري.

وقالت أمه من داخل الدهليز:

- الواد جاي تعبان.. طول النهار يعزق بالفأس.

وقال «رمضان»:

ـ عايزني ليه ما تعرفش!

قلت:

ـ والله ما أدري لكنه يريدك الآن بأي شكل.

فقال:

ـ حاضر. ثم أخذ يطوح اللقيمات في فمه ويتبعها بقضمة البصل، فلما انتهى رفع القلة ودلق نصفها في فمه، وقال لأمه أن تؤجل الشاي حتى يعود.

في طريق عودتنا مررنا ببيت «الحاج نمس» القديم، رأيت الولد «رمضان» ينظر إليه في حسرة، فهو بيت في حارة جانبية من الشارع العمومي كانت تملكه أمه، وقد هجره الحاج إلى بيت جديد بناه في مدخل البلد، عبارة عن سراية لا شك أنكم رأيتموها وأنتم قادمون، ولا شك أنكم تحلفون أنها أحسن من سراية «محمد علي باشا» التي كانت في سخا. قلت لرمضان:

ـ مش كان واجب يديلك الدار دي تسكن فيها وتتجوز فيها بدال ما هي خرابة كده.

فقال «رمضان»:

ـ لازم عاملها مخزن.. وع العموم ربنا يزيده.. مش عايزين منه حاجة.

فتأكدت أنه ولد طيب وصافي النفس، وإلا ما كان استطاع اصطياد كل هذه الدبابات. ثم مال علي هامساً والقلق في عينيه:

ـ بذمتك ما تعرفش الحاج عايزني ليه؟

قلت:

ـ والله ما أعرف.

فمشى الولد المسكين بجواري وهو ليس على بعضه، يكاد يقع من طوله، فلا بد أن الحاج يطلبه في شيء لغير مصلحته فهو يعرف أن «الحاج نمس» لا يحبه ولا يحب أخوته ولا أمه.

مددت يدي من فوق المثلث الخشب وأزحت شنكل باب الجنينة، ودخلنا، وسار الولد المسكين يضرب «بلغته» في الأرض لينفضها من الطين والتراب حتى لا تلوث السجاجيد المفروشة ويكون جزاؤه الشتم أو الطرد.. مع ذلك خلع المسكين بلغته عند آخر سلمة، ودخلنا فحودنا إلى الحجرة الداخلية حيث يجلس «الحاج نمس» وكان لحظتها يجلس في الصالة على ترابيزة السفرة يأكل بسرعة ممسكاً بفخذ ديك رومي كبير، فتركناه ودخلنا الحجرة وجلسنا، وبعد قليل دخل «الحاج نمس» يمسح يديه في الفوطة ويتجشأ قائلاً:

ـ ياللا يا أبو سبعة شوف شغلك.

فأخذت أمروح على النار بسرعة لأحييها من جديد وقال هو:

ـ تعال يا رمضان أما أقولك.

فنهض رمضان منكمشاً على روحه يرتعش، ومضى بجوار الحاج حتى اختفى صوت خطواتهما في الصالة الكبيرة. مر وقت طويل شربت خلاله ثلاثة حجارة بصوت خفيض حتى لا يسمعني،

وأعدت تنظيف الحجارة وتتويجها، أخيراً دخل الحاج وحده يبتسم فاشخاً حنكه الواسع وتظهر أسنانه الكبيرة وقطع اللحم متحشرة بينها.. وراح يشرب..

هات عشرة يا عبد المعطي. لاحظ أنني نسيت حساب البكوات وعليك أن تكتبه بالطباشير، هذه هي الورقة الخامسة فيما أظن، على فكرة.. عبد المعطي لم يرفع السعر كبقية الغرز عندكم.. إن الورقة عنده بعشرين قرشاً فقط، أي أن الحجر يقف بقرشين، عندكم يباع بخمسة تعريفة أو بثلاثة قروش، وطبعاً ليس عندكم خدمة كالتي عندنا. الدور على من؟.. آه.. سأبدأ من اليمين. ولع يا بك.. إشرب بهدوء وعلى مهلك فالنار كالحمص.. يبدو أنك لم تصح بعد.. يمكنني أن أعطيك سنة ألف. أفيون يعني - وهي كفيلة بعدل مزاجك على التمام.. لا.. لا.. اطمئن من هذه الناحية فأنا أحسن من يفهم في الأفيون، قل لهم يا عبد المعطي، إنني يا بيك أقلب عيشي بشرف ولا أحب غش الناس خصوصاً في هذا الملعون، لأنهم يضعونه في جوفهم.. الجمعة الفائتة ذهبت إلى بلدة الرحبة، وهي كلها تجار مخدرات من كبيرها لصغيرها.. عندكم الباطلية، وعندنا «الرحبة». كان معي عشرين جنيهاً هي كل رأسمالي، دخلت المعمعة واشتريت بالمبلغ ورقاً كسبت من ورائه عشرين جنيهاً أخرى في ظرف يومين، نعم أقول ورقاً، لكنه غير الورق، إنه ورق سلوفان، إن تجار الأفيون يتسلمون البضاعة ملفوفة في ورق سلوفان، كل تاجر حسب قدرته، فأنت رأسمالك أوقية أفيون، وهذا رأسماله ربع أوقية، والبيك رأسماله ثلاث أقات، وهكذا، وصاحب الثلاثة أقات يبيع لصاحب الأوقية في ورق سلوفان، وكل واحد من هؤلاء حينما ينهي بضاعته يستخسر ورق السلوفان لأنها تكون ملطخة ببقايا الأفيون، فيحتفظ

بها، ثم يجمع عدداً كبيراً منها ويبيعه لناس مثلي يسمونهم «الكحيتة» فتصور أنني أشتري حفنة ورق بعشرين جنيهاً، أظل أكشط فيها بحد المطواة يوماً كاملاً، حتى أجمع من هذا الكشط جالوصاً كبيراً أبيعه بحوالي ثلاثين جنيهاً غير ما أحتجزه لمزاجي، وأبيع الورق نفسه مرة أخرى بحوالي عشرة جنيهات أو أقل أو أكثر، يشتريها واحد من الأفيونجية المدمنين، أقول لك ماذا يفعل به، يضعه كله في براض كبير مملوء بالماء ويتركه يغلي، ويمسك بطرف الورقة ويغمرها في الماء الساخن ولا يتركها إلا وهي بيضاء كما كانت في الأصل، وهكذا يصبح عنده براض شاي كبير مملوء بالأفيون المذاب، فيضعه في زجاجات، يبيع منها ما يبيع ويشرب ما يشرب آه لو أخذت لك جرعة من زجاجة، مهما كنت مدمناً فإنك لا بد تهتز وتصير في حالة من الفرفشة لا مثيل لها. وعلى كل حال ذق هذه وسوف تجعلك ملكاً. ضبطني الحاج مرة وأنا أكشط الورق بحد المطواة، فوقف مندهشاً وقال لي، هذه نتانة.. فلم أرد ولم أغضب، لأنني أعرف أن الحاج نمس يتاجر حتى في بقايا الحشيش والأفيون المتخلفة بين أسنان صبيانه وهم يقتطعون أثناء البيع للجمهور.

ولع يا بيك. سأقول لك. لم أنسَ، ولكن الكلام مثل الحياة يدخل في بعضه ولا تستطيع قطعه من بعضه، وهذه الأوراق التي كنت أقلب فيها عيشي، والتي قال عنها الحاج إنها نتانة، فوجئت أيام الانتخابات أنه يشتريها، بل أطلق مجموعة من الناضورجية والباعة الصغار فانتشروا بين التجار وجمعوا له زكيبة كاملة من هذا الورق، وضعها في دار أمه القديمة وأمرني بالذهاب إليها، وقبل أن أبدأ في العملية كان هو قد جاء ووقف على يدي. كان الورق دسماً في

الحقيقة، جمعنا منه حوالي ألف قطعة من الأفيون لا تقل الواحدة عن قرش أو نصف قرش، لففنا كل قطعة في ورقة صغيرة ووضعناها كلها في حقيبة سفر أنيقة، ثم قمنا بغلي الورق في حلة كبيرة حتى صار الورق كالعصيدة فأمر الحاج بدهكة في مصفاة، وملأنا بهذه الكمية ما يقرب من ألف زجاجة صغيرة كلف الحاج إحدى الأجزاخانات بشرائها له، ثم برشمها بالفلة ولصق على كل منها ورقة عليها كتابة، ووضعها هي الأخرى في حقيبة سفر، ثم تركنا كل شيء في مكانه وخرجنا إلى السراية حيث أسقيه بقية الليل.

يرجع مرجوعنا للانتخابات. أنا لم أكن أجعل بالي من أشياء كثيرة، ودائماً ينبهني الناس الذين يتضح أن ناساً آخرين نبهوهم.. فجأة رأيت صورة «رمضان» مطبوعة بالألوان على ورق كبير معلق على الحوائط في شوارع البلدة، صرت ألف وأتفرج عليها، ويقولون لي إن هذه الصورة منتشرة في كل بلاد الدائرة، جئت بولد تلميذ وجعلته يقرأ لي ما عليها من كتابة، فقرأ: «انتخبوا بطل أكتوبر.. النمس.. لا تنتخب إلا النمس.. بطل أكتوبر.. صائد الدبابات النمس.. الذي حارب من أجلكم وانتصر.. هو الذي يستطيع أن يمثلكم». وسألت هل اسم الولد «رمضان» مكتوب على أي صورة؟ فقالوا لي: لا.. المكتوب هو النمس فقط.. قلت لا بد أن المطبعة ضحكت على الحاج ونسيت اسم الولد المرشح، فطلعت أجري إلى الحاج وهتفت أن انتبه فاسم الولد ليس مكتوباً.. فضحك الحاج حتى اهتز كرشه وقال:

ـ مش مكتوب النمس.

قلت: نعم. قال: خلاص.. الناس حتعرف الباقي.. هو فيه كام نمس في البلد اصطادوا دبابات؟..

قلت: كان واجب نكتب اسمه: رمضان النمس.. عشان نفرحه.

ضحك ثانية وقال: ولا يهمك..

وفي يوم الانتخاب ركبت الخنزيرة مع الحاج وأخذنا نلف البلاد، يمكث في كل بلد وقتاً قصيراً ثم ننصرف إلى بلدة أخرى، و.. لاحظت يا بكوات أن الزجاجات التي قمت أنا بتحضيرها منتشرة بين الناس، في اللجان وبين الناخبين، كان الواحد منهم ينزوي في ركن بعيد ويتأمل في الزجاجة والفرح باد عليه، وكانت عصابة الحاج تختطف الناس من كل مكان وتقف معهم، فإذا دخل الناخب إلى اللجنة قالوا له: تنتخب من؟.. يرد بصوت عال: النمس يا بيه.. النمس يا بيه.. النمس يا بيه.. وانطلقت الزغاريد في البلد مع النتيجة، وانقلبت السراية بمجاميع الناس الذين جاؤوا يباركون للحاج.. وسألتهم لماذا لا يباركون لرمضان باعتباره هو الذي نجح؟.. فضحك الحاج كما ضحكت العصابة ضحكاً كثيراً، وقالوا لي: رمضان مين يا جدع.. الحاج هو الذي رشح نفسه وكسب الدائرة!..

الحاج؟!.. كيف يا جدعان.. إن الصور والدعاية كلها كانت لرمضان صائد الدبابات.. فقالوا: بل كانت للحاج نمس.. قلت: فما لزوم صورة رمضان إذن في الموضوع؟ قالوا لي: يا عبيط إن الحاج يتفاخر بأخيه ويقول لأهل الدائرة إنه يستحق الإكرام من أجل أخيه البطل. فوالله وبالله لم تدخل هذه الحكاية دماغي أبداً، وظللت حتى الآن لا أعرف كيف أجعلها تدخله. إنما المهم أن «الحاج سعيد النمس» حصل على ما أراد.. وها هي ذي عرباته

تدخل أي مكان فتفتح لها الأبواب، وتخرج فتنحني لها الرؤوس، وهو الآن يبيع ويشتري في الناس.. فهل تريدون معرفة كيف يفعل ذلك؟.. إذن فهات عشرة يا عبد المعطي..

الدور في هذه المرة يبدأ - عدم المؤاخذة - من الشمال.. أنا لا أحب الدخول من الشمال ولكن هكذا النظام.. ولع يا بيك.. ذات صباح قالوا لي إذهب لتساعد البنائين في الدار القديمة وترى طلباتهم. طيب.. فإذا بدار أم النمس قد هدمت وشملت في هدمها ثلاثة أو أربعة بيوت كبيرة اشتراها الحاج بثمن بخس من بعض الأرامل، وإذا بالفواعلية قد اختطوا أساساً مفحوتاً في الأرض، فلما سألت عرفت أن الحاج يبنى ها هنا مجموعة من الدكاكين.. فظللت أساعدهم وأقدم لهم الشاي واشتري لهم الصنف حتى تحولت هذه الخرابة إلى جناح كبير يضم حوالي عشرين دكاناً.. عشرة مقابل عشرة وبينهما حارة بطول العشرة تنتهي بجدار طويل بباب صغير هو جدار المخزن الكبير، كان منظراً مفرحاً في الحقيقة، جعل الواحد يتخيل أن البلدة صارت مدينة، وخصوصاً وأن الدكاكين بالتبن والمسلح ومبيضة بالزيت، وبها فتارين من الزجاج وأرفف ودواليب من الخشب المدهون اللامع. وقيل إن «الحاج نمس» سوف يؤجر هذه الدكاكين لناس سوف تأتي من المدينة لتفتحها. وقيل أنه أخيراً رق قلبه لأخوته من أبيه وقرر أن يؤمن لهم مستقبلاً بمنح كل واحد دكاناً ببضاعته. ولكن «الحاج نمس» لم يفعل شيئاً من هذا. وفي صباح آخر ذهبت إلى هناك بعامود الغذاء للحاج فوجدت العجب، أنتم - إذا كنتم من بلدتنا - تعرفون أن دار أم الحاج نمس كانت حارة متفرعة من الشارع العمومي، ونقول إنه اشترى الدور المجاورة لدار أمه حتى وصل بدكاكينه إلى الشارع العمومي،

وصارت أبوابها تفتح على الحارة التي تخصها، يبقى الشارع العمومي وهو شارع يسمى داير الناحية إذ هو يطوق البلدة ويلف حول سرتها. فكيف يمكن أن يباع الشارع العمومي، ومن الذي يستطيع أن يبيعه؟.. مع ذلك قالوا إن «الحاج نمس» قد اشترى هذا الجزء من الشارع العمومي، الجزء الذي إذا سده «الحاج نمس» واشترى البيت المقابل صار مربوطاً بسرايته ومربوطاً أكثر بمخازنه التي كانت في الأصل مخازن الوزان. بشرفك يا بيه قد كان.. اشترى البيت المقابل وهدمه وحوله إلى قطعة أرض فضاء يلف حولها سور من الطوب الأحمر، يمتد هذا السور ليلتصق بحائط الدكان المطل على الشارع العمومي، وبهذا انسد الشارع العمومي نهائياً، لكن «الحاج نمس» كما تعلمون رجل حقاني، لا يرضيه أن يتعذب الناس، الحق لله أنه بقي مدة شهر تقريباً يرى كل يوم خناقة، ومحاولة لهدم السور تنتهي بفض اشتباك وكلمتين طيبتين؟ إلى أن أعلن «الحاج نمس» أن هذا لا يرضيه، وأنه سوف يظل يعمل لخدمة أهل الدائرة وتخفيف أعباء المرورية عنهم، ولم يكذب خبراً، ففي الصباح جاء بالفواعلية فشقوا طريقاً مهنباً لطيفاً يلتف حول البيت الذي هدمه وسوره، ثم يلتوي قليلاً ليلتف من جديد حول سرايته، ثم ينحرف داخلاً إلى وسط البلد من جديد، وقد كلفه هذا الطريق ـ فيما يقول ـ آلاف الجنيهات.

ثم إنني بدأت أرى «الحاج نمس» في حالة انشغال دائمة، يجتمع بناس ويبعث في طلب ناس وسأل عنه ناس حتى حفيت أقدامي من الجري واللف والخدمة، إلى أن جاء يوم سافرت فيه إلى «بور سعيد» التي كنت أسمع أنها ضربت الفرنساوية والإنجليزية والصهيونية ـ كما قالت أم كلثوم في أغنيتها.. فرأيتها زائطة مائجة

كلها ناس وبضائع ومعارك بين الناس وبعضهم، وعربات تدهس ناس، وناس تدهس عربات، ونساء يفتشن ورجال يتعرون، كل ذلك في سبيل البضائع، ورأيت عربات «الحاج نمس» تشحن من كل شارع آلاف البالات والكراتين والزكائب، وهو يمر ويعاين ويكتب ورقاً، وكنت أركب وراءه في الخنزيرة حاملاً حقيبته «السانسونايت»، فسألته: لماذا كل هذه البضائع يا حاج؟. فقال: إن «بور سعيد» منطقة حرة، يعني كل واحد يأخذ منها ما يشاء.. المهم أن العربات النقل نزلت البلد، وأفرغت بضائعها في المخازن ثم قام ناس بترتيبها في الدكاكين والفتارين، وأن هي إلا أيام قليلة حتى أضيئت الدكاكين باللمبات النايلون الطويلة وصارت البلدة بفضل هذه المنطقة تلعط في الليل كالعروس المجلوة، ثم أن هذه الدكاكين انفتحت على المنطقة المسوَّرة، وامتدت البضائع والمعروضات على عربات صغيرة، وأخذت الميكروفونات تلف هنا وهناك وتنبح مبشرة أهل الدائرة بأن «الحاج نمس» قد أغرقها بالرخاء، وها هي البضائع على قفا من يشيل، صحيح أن القفا الذي يريد أن يشيل سيدفع نقوداً كثيرة قبل أن يشيل ولكن القفا في النهاية سيجد ما يشيله، وسيتعب في البحث عن نقود يشيل بها..

هات عشرة حجارة يا عبد المعطي..

أنتم عدم المؤاخذة كثيرون في عين العدو ولن يكفيكم عشرات العشرات بالصلاة على النبي، أنا مبسوط منكم لأنكم تضربوها صرمة قديمة.. «فالحاج سعيد النمس» الآن يحسب الوقت بالذهب.. فمسافة ما تشربون ورقة واحدة يكون هو قد جمع ألف ورقة في جيبه ولكن من ورق البنكنوت. أنتم عدم المؤاخذة، تحبون التحشيش في وضح النهار، وهو رجل عملي، يحب سرقتكم في وضح النهار.

فطالما أنتم تحششون وهو يعمل فسوف يظل يعمل. وهذا ما قد حدث.. ولع يا بيه. هذا دورك في التوليع على النظيف وأنا لا أوافق، هذا أيضاً من حسن حظ «الحاج نمس»، كل واحد يريد أن يأخذ دور الآخر، يركب على الآخر، عدم المؤاخذة أنا لا يهمني، أنا أقول الحق ورزقي على الله.

ولع يا بيه. أقول إن «الحاج نمس» اطمأن إلى أن كل الشبان المفتحين والرجال النيرين يبيتون من السطل الشديد في حال، وهو يبيت من السطل في حال أيضاً ولكن سطله مسنود بالغذاء والأمن وهو ينسطل ليفكر وهم ينسطلون لينسوا.. وكان يوماً مشهوداً ذلك اليوم. بعد صلاة فجر مباشرة كان رجاله قد انتشروا في سوق البلد، سوق البلد يقام عادة يوم الثلاثاء، ومكانه هناك في المدخل الشرقي للبلد، وكان السوق يقام وينفض وقد لا يشعر به أحد من أطراف البلد، صحيح أنه يشيع الحركة في البلدة كلها، ولكن «الحاج نمس» كان يغتاظ لأن تجار الحبوب يطلعون السوق بأنفسهم ويقيمون «فرشهم» في أماكن معتادة، يبيعون ويشترون ويأكلون زبدة السوق، أما هو، فلا يجيء لمخازنه سوى المزنوقين في شيء شاحح، وهذا شيء يقلق بال الحاج، ولذلك فإنه بصحبة رجاله وقفوا بعد صلاة الفجر في مكان السوق بالعصي والمسدسات والبنادق المخفية البارزة في نفس الوقت وكلما هبط بائع سريح هبطوا عليه ومنعوه من إقامة فرشه، ونبهوا عليه أن مكان السوق قد انتقل إلى المدخل الغربي، بالتحديد في قلب السوق الذي أقامه الحاج بجوار الدكاكين الجديدة، ويتطوع ليصحبوا الناس إلى المقر الجديد ويساعدوهم في إقامة فرشهم.

استغرقت هذه العملية ثلاث جمع متوالية استقر بعدها السوق

في مطرحه الجديد وأصبح تحت سيطرة الحاج، وكانت الميكروفونات تلف وتعلن أن الحاج فعل ذلك خدمة لأهل الدائرة الذين لا يقدرون على الذهاب إلى السوق. ثم إن الحاج راح يتسلل إلى الباعة ويدرس أحوالهم، ويكرههم في عيشتهم، ويطلب منهم الاهتمام بمستوى البضاعة، فيبدو يأسهم من ضيق ذات اليد، فيعطيهم، وفي ظرف عام واحد لم يعد هناك باعة ولا تجار يملكون، تحول الجميع إلى باعة، مجرد باعة بالأجر، وقد وضح أنهم جميعاً سعداء، فأخيراً وجدوا من يعفيهم من لعبة الحظ، ويضمن لهم آخر النهار لقمة طرية وهدمة مستوردة، وقرشاً سائلاً في اليوم.

تقول إن هذا شيء جميل، أنا أيضاً أقول، ولكن الجميع الآن يعبرون عن سعادتهم وهم يضعون أيديهم على قلوبهم، فكثيراً ما ينحرف مزاج «الحاج نمس» في لحظة، فيغلق الدكاكين، ويغلق السوق، ويستمر أياماً. أراكم تنزعجون. ها ها ها هاي.. فماذا إذن لو علمتم أن «الحاج نمس» منذ أيام قليلة قد بدأ يسرب بضائعه وأمواله شيئاً فشيئاً إلى أن فرغت الدكاكين تماماً، وقد ظل الناس يتعشمون الخير حتى أعلن أفلاسه وصار الناس يبحثون عن عمل بعد أن فرطوا في رأسمالهم.. أما أنا فأعرف أنه قد نقل نشاطه إلى مكان آخر لم أعرف اسمه بعد.. ويظهر أنني لن أعرفه، لأنني لم أعد أراه منذ ترك الخنزيرة واشترى طائرة يسافر بها إلى مكاتبه المنتشرة في كل بلاد العالم.

هيه.. ولع يا بيه..

فما الذي تقولينه الآن يا نوحايه؟!



فما الذي تقولينه الآن يا نوحاية؟!

خلال السنوات العشرين الماضية كنت أتابعهم واحداً واحداً. وكنت أعرف أنهم أيضاً يتابعونني. وكانوا هم يعرفون أنني أعرف وكنت أنا أعرف أنهم يعرفون، ومن المؤكد كاليقين وكسطوع الشمس ظهراً أن أخبار كل واحد منا موجودة في جيب الآخر، بكل التفاصيل.. ومع ذلك فحين يلتقي أحدنا بالآخر يبدو كأنه لا يعرف أي شيء عن الآخر، وتنهال الأسئلة الطامحة الطامعة المشتاقة تتقصى كيفية الأحوال والصحة، وعامل إيه دلوقت، لعلك بخير.. بخير والحمد لله وأنت ما بنسمعش أخبارك ليه.. يا عم فكّر تزورنا مرة هو ما كانش عيش وملح وإلا إيه؟!. ويتواعد الاثنان ـ وعوداً صريحة مؤكدة ـ على أن يتزاورا، وأن ينعشا الذكريات ويقيما وصل الماضي بالجديد. غير أن هذا اللقاء يتكرر بكل حذافيره إذا ما تصادف والتقى الاثنان صدفة في أي مكان..

كنت أعرف أن «بهاء الدين» قد أصبح «صولاً» في الجيش وأن حالته قد تحسنت بعد عودته من حرب اليمن. فقد أغدقت الحكومة على الجنود المبعوثين إلى اليمن أموالاً طائلة، ابتنوا بها البيوت واقتنوا عربات الأجرة وانتقلوا بأهاليهم وذويهم إلى حياة جديدة في أطراف القرى.. وبذلك قدر «لبهاء الدين» أن يعوض سنين التخلف

الدراسي ويحقق مستوى من الحياة والأمنيات يفوق ما حققه الذين واصلوا دراساتهم بنجاح. وكنت أعرف أن «سميح» ابن الذوات الذي كان يعاشرنا من باب التقديس للزمالة بصرف النظر عن مستوانا الطبقي، قد ظل يرسب في الدراسة عاماً بعد عام بمزاجه الشخصي! ولم يكن أبوه يدعي هذا حين كان يردده بأسف أمام كل من يسأله: فالولد بالفعل قد «غوى» بمعنى أنه عشق منصبه كرئيس لاتحاد الطلاب في جامعة «المنصورة» وكان مستعداً لأن يدفع عمره، مقابل أن تظل أخباره وصوره تنشر في الجرائد. وكان ـ يقول أبوه في خطاباته لي ـ يسهر الليل يدبج الخطب إلى أن استقر على صيغة مناسبة تصلح لكل زمان ومكان ولكل شخص يعتلي زمام المسؤولية في البلاد. وآخر أخباره عندي أنه بعد أن توفي أبوه انهزم شر هزيمة فخرج من الجامعة بلا شهادة نهائية، وانتقل إلى مدينة «طنطا» ليتولى إدارة محل الأخشاب الذي آل إليه. وكنت أعرف أن «عبادة» قد دالت دولته، فنزل فجأة من عليائه إلى الصفر، كان قد تخرج في كلية العلوم وكان عضواً بمنظمة الشباب، وألحق بوظيفة في المحافظة وأصبح مسؤولاً كبيراً في نطاق محافظتنا عن الشباب، وكان في القرية متحدثاً رسمياً باسم الثورة والاتحاد الاشتراكي وباسم أشياء كثيرة. فلما قامت ثورة التصحيح حاول أن يصل نفسه بأسبابها ولكن شباناً جدداً كانوا له بالمرصاد، فلفظوه وحملوه مسؤولية وجود عبد الناصر والسد العالي وحرب اليمن وسجن المخابرات والقضاء على إنسانية الإنسان وانقراض المواطن الصالح، وكان بدوره غير راغب في الصراع لما يهدد من دموية، فاكتفى من الغنيمة بشقة عظيمة كان قد منحها أيام العز، وعربتين له ولزوجه كان بسلطانه قد احتجزهما من شركة نصر وخرج

ثمنهما مصاريف نثرية تافهة، ثم استحضر عقداً وسافر إلى الدول العربية مدرساً ثانوياً. وكنت أعرف أن «سعيد» أو الحاج «سعيد» كما قد صار أو «النمس» كما كنا نسميه أيام الدراسة قد اتضح أنه أحكمنا جميعاً، منذ أن أخذها من «قصيره» ونبذ فكرة التعليم من أساسها، واكتفى بالشهادة الابتدائية والتحق موظفاً بالجمعية الزراعية أميناً لمخازنها، فصار حاجاً، وآخر أخباره عندي أنني - وفي شارع سليمان سنة ١٩٧٤- رأيته يجرر عباءته في الطريق سائراً، ورأيت «يوسف خلف» بجلالة قدره «أبرز أعيان البلد طوال تاريخها الحديث، يستوقف الحاج سعيد في الطريق ثم يهرول نحوه في امتثال الخدم ويسلم عليه في احترام يقترب من لثم اليد طالباً منه خمسة جنيهات سلف.. فلم أرهما نفسي وكانوا يعرفون أن خيبتي لم يعد لها مثيل، فقد كنت الوحيد الذي أخذ المسألة مأخذ الجد، وسهر وضرب المثل في التفوق الدراسي حتى حصل على ليسانس الحقوق ثم عملت موظفاً بوزارة المالية، ثم سكنت في شقة بحي زينهم في بيت كان جديداً وقتها، فإن هي إلا شهور قليلة حتى وقعت ابنة صاحب البيت في غرام العبد لله فرمت شباكها واصطادته زوجاً، وأنا بدوري في الحق أسلمت قيادي للشباك دون مقاومة بل استرخيت في لذة، وأشهد أن زوجتي جميلة وساحرة وما تزال، فضلاً عن أنها طيبة وبنت حلال، ولكنها أنجبت لي خمسة ذكور وأربع أناث خلال خمسة عشر عاماً، فصرت أبحث لنفسي بينهم عن لقمة صغيرة أتبلغها، وبقعة صغيرة أضع رأسي فيها، ورقعة متواضعة أستر بها جسدي، رغم أن حماي قد استغنى عن إيجار شقتي، وتوسط لدى السيدة الكريمة «نوال عامر» عضو مجلس الشعب فنقلتني إلى إدارة التأمين والمعاشات بدرجة أعلى، وفرصة

للعمل بعد الظهيرة «الأوفر تايم».. ومع ذلك ظللت محروماً من السيجارة ومن فنجان القهوة كرؤساء الأقسام الأخرى.

وطوال هذه السنوات الماضية لم يكن يشغلني من أمر الجماعة القديمة سوى «حميدة»، ذلك المحور القوي الذي ربط بيننا برباط من حديد رغم الشتات الذي أصابتنا به الأيام، فلا بد أن يكون ثمة سر عظيم كامن في الأمر، فكل الناس قد زاملت في طفولتها وصباها، وكل الناس قد أحبت وخابت في حبها، وكل الناس قد تفرقت في النهاية أو في البداية ومع ذلك لم تتوقف الدنيا ولم ينشغل أحد بأحد كل هذا الانشغال مثلما انشغلنا نحن ببعضنا البعض وبحميدة والسبب.. «حميدة». وليته كان انشغالاً مفيداً بالنسبة لأي منا، إنه مجرد انشغال، أراني مدفوعاً للسؤال عن أخبارهم بالتفصيل وباهتمام يفوق اهتمامي بأولادي، وأراهم - واكتشف أنهم يفعلون نفس الشيء معي، وينفلت لسان الواحد منهم بكلمة واحدة ربما، تكشف عن أنه ساهر يترقبني ويتوقع لي الفشل في كذا والنجاح في كيت وها هي ذي نظرته قد تحققت هنا أو ها هنا. ولكن والعجيب أن أحداً منا خلال لقاءاتنا التي تمت كلها صدفة أو بتدبير، لم يعن بالسؤال عن «حميدة» ولعل كل واحد كان يضمر في نفسه محاولة الوقوف على أخبارها بطرق دبلوماسية ودون أن يسأل بشكل مباشر!.. في كل لقاء لمحت الأعين انعطافة لذيذة تقول دون أن تقول: ما تعرفش إيه أخبار «حميدة»؟. ولكن السؤال أبداً لا ينطلق ولا يتحدث.

وأجزم أن السبب في استمراره وفي بقاءه أنه لم ينطلق، فظل يتأجج بالرغبة القديمة الموثقة، والأمر من جانبي كان قد وصل إلى ذروته. ربما لأنني أكثرهم اهتماماً وانشغالاً بأمر «حميدة». وربما

لأنني أقلهم إلماماً بأخبارها وما وصلت إليه من حال. هي الوحيدة من بينهم ليس لها عندي من «آخر أخبار». فكل ما وصلني عنها من مصادري الخاصة لم يكن يدخل في باب الأخبار بقدر ما يدخل في باب الشائعات، وهي شائعات غير مغرضة، لأنها أدلى بها من ناس طيبين جداً ولا يعنيهم أمرها من قريب أو بعيد، هم ناس من قريتي أراهم في المدينة فجأة يتقافزون أمام العربات كالقرود، أو أصدم بهم في عيادة طبيب نصف مشهور. أو في موقف أحمد حلمي بينما أوصل حماي إلى بور سعيد أو استقبله حاملاً الهدايا التي جاءت باسمنا لتباع لآخرين يملكون ثمنها. فأسألهم - بقليل من الحرج: ما تعرفوش البنت اللي كانت معايا في المدرسة، اللي أمها ساكنة جنب محمود البقال.. أيوه اللي اسمها حميدة.. فيضربون جباههم بأكفهم صائحين: آ.. ه.. أوه أيوه حميدة اللي كانت سافرت تتعلم، اللي ربنا أداها سر آدم:

سر آدم.. أتساءل أنا مبتسماً، وأقول بيني وبين نفسي أن المسألة دخلت في باب الأساطير، وحين يلحظون دهشتي وعدم ثقتي في أنهم يعرفونها، يسارعون بإسكاتي: أيوه سر آدم.. هو آدم كل من الشجرة ليه.. مش عشان يعرف إيه طعم الشجرة دي اللي ربنا وصاه ما يأكلش منها.. بني آدم ضعيف طبعاً وكان لازم يأكل من الشجرة دي بالعنية عشان يعرف إيه حكايتها بالضبط.. فلا أدعهم يسترسلون، لأنهم يكونون قد أفصحوا تماماً عن معرفتهم لحميدة الحقيقية التي أعرفها. نعم هذه هي حميدة.. ونعم هذا هو أجمل وصف لها وأجمل تفسير لشخصيتها التي أعرفها..

كانت فتاة. وكنا ذكوراً وكنا جميعاً نحبها..

وكنا نعترف بذلك في لحظات الضعف حيث فشلت المنافسة بيننا في استحواذ أحدنا عليها، فكتمنا ضيقنا من بعضنا وقلنا باسمين أنها تشبه فكرة الوحدة العربية وأننا جميعاً نلتف حولها إذ نحبها. وكنا جميعاً نحب ما يذاع في الراديو - في صوت العرب بالذات - وما ينشر في الجرائد حول الوحدة العربية الكبيرة. وكم كان لهذه الكلمة من وقع ساحر في نفوسنا، نتخيل أنفسنا وقد صرنا نجوماً عربية ترحل من دجلة إلى بردى إلى الفرات عائدة إلى النيل، لنستأنف الرحيل إلى الخضراء وأخوتها، ونرى أنفسنا في العيون نطقنا بعزف آخر.. كنا نكرر معانينا وأخيلتنا على آلات كثيرة كلها عربية. وكنا نحبها.. وكانت فتاة.

لم تكن زميلة لنا في المدرسة.. ولم تكن مطمحاً طبقياً بأي حال. على العكس كانت يتيمة الأب بلا ميراث. ابنة أجير على قد حاله لم يكن يملك سوى ساعديه. فلما انهد واندفن استعارت أمها ساعديه وراحت تعمل بهما نفس العمل، إن كان عزيقاً فعزيق وإن جمع قطن فجمع قطن، ولم يكن ينقصها من أعمال الرجال سوى المناصب الرئاسية كالخولي أو الناظر أو ما إلى نلك. لا تقبل طلوع الترحيلة رغم إغراءات نصف الريال اليومي: أسيب ولادي لمين؟. وتقبل الستة قروش في اليوم لكي تعود إلى الدار في مطلع المساء. يقول لها الناس، رجال ونساء وصبيان: لو كنت منك كنت أشغل الولاد.. ثلاث عيال يجيبوا ريال في اليوم.. لكنها أبداً لا تقبل حتى أن تسمع هذا الكلام. لكل شخص رده المناسب، إن كان رجلاً محترماً صادق النية فإن ذقنها بوشمه الأخضر المستطيل الذي يبدأ من منتصف شفتها السفلى يتراجع باسماً في حياء ترتعش قمته على الشفة يجيشان الكلام: يعني يرضيك أهينهم.. دا أبوهم

موصيني عليهم ودول أمانة في رقبتي وأهي مستورة والحمد لله.. إما أن كان المتحدث واحداً من «الكحيتة» فإنها تنفجر من الغيظ: «هما كانوا شحتوا منك.. يا شيخ ما تخليك في حالك..».

وقد تعود الجميع أن يخلوا أنفسهم في حالهم، وأن يتهيبوا هذه السيدة خوفاً من التهزىء أو الرد الباطش. رجال كبار أثرياء كانوا يخاطبونها باحترام شديد ولا يستضعفونها أو يتطاولون عليها، باستثناء «أبو ظريفة» لأنه فاسوخة البلدة كلها، يكون سعيداً من يحظى بشرف معابثته، إذ أنه لا يعرف الحياء مطلقاً في أي لفظ أو سلوك في أية لحظة، حتى في أشدها دقة وجلالاً، يخرس الجميع في الحال بلا رد فيضحكون من تعليقه في تأمل فلسفي.. ذلك أن قلة حياءه تحظى باحترام عجيب.. ربما لأنها نابعة من صدق عظيم ومطلق في كل شيء.. فالأشياء عنده ليس لها اسم آخر غير اسمها الحقيقي، والشيء يوصف بوصفه الدقيق في اللحظة المناسبة دون مواربة وبلا تهذيب. ولولا حلاوة «أبو ظريفة» في مداعبته لـ«نوحاية» لأهالت عليه طوب القواميس وغبارها المدفون. كان كلما التقاها يعرض عليها المناكحة شرعاً، فقد لا تندهش هي من صدمة اللفظ في حين يندهش الآخرون وحينئذٍ يلومهم على دهشتهم بقوله أنها كلمة مقدسة وردت في القرآن الكريم ولو كانت عيباً أو جارحة للحياء لاستبدلها القرآن بلفظ آخر..!

تعتدل هي في الحال كأنها ضبطت عارية. تشد الطرحة، ومن تحتها تجذب المنديل حتى لا يظهر من شعرها طرف شعرة، ولكن يضيء وجهها ويزدهر الوشم على ذقنها ويزداد أخضراراً، وترد رداً - ربما كان هو الوحيد في البلد الذي يوازي شخص أبي ظريفة ويتكافأ معه، فبلا حياء ولكن بعبارة لا تتخلى عن الحياء تقول أنها

ـ العفو ـ ليست من ثوبه، فثوبه الحقيقي منطرح على أجساد الغوازي، يطعنه الرد وتنهدل ملامحه المتشبثة بالابتسام، ويرميها بشتمة سوقية مناسبة ثم يمضي، فلا تلتفت هي إليه.

هي أيضاً كنا نحبها، كملح بارز في وجه قريتنا عندما يهبط المساء علينا في حجرة فقيرة فوق سطح عمارة استأجرناها ـ الحجرة ـ في مدينة دسوق، كنا خمسة في سن واحدة وسنة دراسية واحدة وفي نهاية العام سنحصل جميعاً بإذن الله على الشهادة الابتدائية لنصبح بعد ذلك أول جيل من حملة الشهادات في قرية (أبو دعموم).

في ليلة تذاكرنا فيها المواد كثيراً، وتذاكرنا في نوادر «نوحاية» أكثر: تساءلنا عن أصلها وفصلها ومعنى اسمها، فنحن ـ منذ وعينا ـ نراها هكذا بلا رجل، تسكن داراً صغيرة ذات حجرتين متجاورتين ودهليز طويل يفضي إلى سلم يفضي بدوره إلى (مقعد) من البغدادلي الرخيص.. يطل باب الدار على الشارع العمومي، وينحشر بين اثنين من أكبر دكاكين البقالة في البلد.. في المواجهة خياط يتربع ليل نهار على المصطبة الخارجية يخيط الأقطنة ويلقف العباءات. تداولنا الآراء والنكات: تقول هي ـ فلها مثل علية القوم أقوال ومأثورات مدونة في الرؤوس: أنها سميت «نوحاية» نسبة إلى جدها نوح عليه السلام، وأن النجاة بالسفينة ديدن جدها القديم ولا ينبغي لسلالته أن يضلوا، إنما عليهم أن يركبوا سفينة إذا ما حل بهم الطوفان، أما وقد حل بها الطوفان وحدها بموت زوجها عن ثلاثة أولاد فإنها لجديرة بأن تقود بهم السفينة إلى النجاة.. قيل لها وما السفينة في نظرك يا نوحاية؟ قالت: هي حماية العرض والأولاد من تعريضهم للذل والإهانة.. قيل وهلا تلاقين أنت الذل والإهانة يا

«نوحاية»؟ قالت: من يملك ساعدين كساعدي ولساناً كلساني وحقاً كحقي لا يذل ولا يضام.. ثم تستطرد قائلة: إنما يذل الإنسان نفسه بنفسه. والواقع أن سر اهتمامنا الكبير بنوحاية في تلك الليلة، حيث سجلناه على أنفسنا جميعاً بكثير من الغمز واللمز والخفقان، كان وراءه دافع آخر، تلك هي «حميدة» ابنة «نوحاية» التي كنا قد اكتشفناها فجأة كل على حدة.. فمنذ أن بدأنا نتغيب عن القرية سعياً وراء العلم في المدينة أصبحنا لا نقضي في القرية سوى ساعات الإجازات فلا يتاح لنا رؤية النمو إلا بشكل مفاجيء. وهكذا رأينا «حميدة».. كنا عائدين من المحطة يحمل كل منا «سبت» الزوادة بيده بقليل من الحرج لا يغطيه إلا شعورنا بأهميتنا كطلبة علم في المدينة، وجلابيبنا ذات الياقة والأساور، أو القمصان والبنطلونات، وما إن تجاوزنا آخر الكباري في الطريق الزراعي وأوشكنا على كوبري السلامونية حتى رأيناها صاعدة سلم (الموردة) بالبلاص، هيفاء كمهرة عاقلة جامحة في آن، فلما وصلت الدرجة الأخيرة صعداً واجهتنا، فإذا بنا أمام عروس تخر لها الجباه وتتملط العيون الملتهبة، نعم كانت مذاقاً مجسداً يغري بالإلهام، ذهلنا كلنا في لحظة واحدة وتبادلنا النظر في خجل ونطقنا: «حميدة.. مش معقول». فلما شارفتنا طرحت على رؤوسنا ابتسامة ظللنا نلملم أطرفها إلى أن وصلنا بيوتنا.

ثم لوحظ فيما بيننا أن أحداً لا يريد أن يجيء بسيرتها أبداً، لكننا كنا نلمح خيال هذه السيرة في ضمائر بعضنا البعض، ونكاد نجرها لولا حرص غامض سرعان ما يمسكنا عن الخوض فيها، كأنها شيء محرم وكان من الواضح أن كلامنا قد أضمر في نفسه الاستئثار بحبها وحده، فلما بدأنا نتساقط أمام بعضنا البعض واحداً

وراء الآخر لجأنا إلى العقل المبكر الذي بدأنا نكتشفه هو الآخر بعد انقطاعنا عن تخريف العامة واتكاليتهم وبعد احتكاكنا بمسائل الهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء وما إلى ذلك من ضروب نبهتنا إلى عقلنا.. وعقدنا اتفاقية صريحة عقدنا لها الاجتماعات وناورنا بما فيه الكفاية.. واعترفنا أخيراً بمجموعة من البنود الهامة، على رأسها أننا جميعاً لن نفكر في الزواج منها مهما كان جمالها، فنحن غداً أو بعد غد سنصير أطباء ومهندسين ومعلمين وضباطاً، ومن يدري فربما صرنا وزراء وسفراء وأبهة، والمقطوع به أننا لن نفتح باب الزواج الآن لأنه قد يغلق علينا أبواب فرص عظيمة للحياة، وبالتالي، فإن اختلافنا على «حميدة» لا يجب أن يقودنا إلى الخسران، وطالما أن أحداً منا لا يضمر لها غرضاً سيئاً فإن الاقتتال بشأنها يعتبر ضرباً من العبث لا يصح لأمثالنا - ونحن حملة الابتدائية - الاستمرار فيه.

أدلينا جميعاً بتوقعاتنا الشفوية على هذه الاتفاقية الهامة، وفي اليوم التالي وربما اللحظة التالية نقضناها تماماً. شغل عيال كما تعرفون، لكننا ضبطنا أنفسنا بأنفسنا ندلي بتصريحات ذات خطورة في جمالها وحسن لحظها وعذوبة خطوها، وأي حديث عنها كان يعد من قبيل السلوى، ونجر بعضنا بعضاً إلى التحدث فيها لنستمتع.. على أن ضربة الحظ المفاجئة التي خبأتها لنا الأيام لم تكن تدور لأي منا في خلد: كنا لحظتها قد دخلنا القرية وصرنا في الشارع العمومي، نتوقف من خطوة لأخرى نسلم على الناس، إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان واستوقفتنا «نوحاية» أمام باب دارها، حيث كانت تقف بجوارها.. «حميدة». ما إن رأتنا حتى تأوّد عودها اللدن في رشاقة وهمت بالاختباء لكننا أدركناها وهي لما تكد

تستدير داخله، فارتدت عائدة وسلمت علينا ناطقة اسم كل منا على لسانها.. فحللنا وقعه بكل دقة وانتباه، ومع أنه لم يكن هناك أدنى اختلاف في صوتها من اسم لآخر، إلا أن كلاً منا حاول تعميق ابتسامته بقدر الإمكان!

لفت «نوحاية» يدها في طرحتها ـ حتى لا تنقض وضوءها ـ وسلمت علينا، فلا ندري لماذا أسعدتنا هذه اللمسة إلى جد النشوة. كأنها قد اعترفت بذكورتنا أمام تمثال فينوس. بالطبع أطلنا الوقوف.. ونظرت «نوحاية» إلى «حميدة» قائلة بكل جرأة: «تتمعشق البنت في التعليم!» فهتفنا جميعاً بحماس منقطع النظير أن لا بأس ويا حبذا ويا ليت والله تنجح. حينئذٍ خطت «حميدة» نحونا متجاوزة عتبة الباب كأنما لتعبر عن انتمائها النهائي إلينا، وواجهتنا بقوة غريبة وإصرار وثقة. وهنا ابتسمت «نوحاية» وقالت كالمعتذرة ولكن في لهجة طاغية: «بعدما شاب ودوه الكتاب.. يا بنت دا أنت سنك أربعتاشر سنة». وقالت حميدة: «وأيه يعني.. العلام ملوش دعوة بالسن.. وأنا حاتعلم يعني حاتعلم حادخل امتحان الابتدائية من منازلهم» ـ طوحنا رؤوسنا في الهواء من النشوة، دون أي كلام راحت عروضنا في المساعدة تتسابق وتتصادم أمام عينيها.. ولم ننصرف إلا وقد انتهينا ـ على قارعة الطريق ـ من توزيع المواد على مدرسيها ـ الذين هم نحن ـ وحدد كل منا عدد الحصص التي (سيلتزم) بأدائها كل أسبوع، على أن يتم هذا ـ طبعاً في الإجازة الصيفية.

ولكن أي إجازة وأي صيفية؟. لقد صرنا نخالس الزمن لحظات سريعة نتحجج فيها بالسفر إلى البلدة، واكتشفنا بعد قليل أن كلاً منا قد بدأ نشاطه في إعطاء الدروس بالفعل، رأينا بصمات بعضنا

وخطوط بعضنا على كراسات الفتاة، ورأينا أيضاً كتبنا القديمة وما تحويه من دسائس ورقية صغيرة مليئة بعبارات مرعوشة لم تكن هي ـ من أسف مضحك ـ تجيد القراءة لتقرأها!. على أن شيئاً غريباً كان يحكم علاقتنا بها. ذلك هو إطار العلو الأخلاقي المزعوم، وواقعه أن كل واحد يريد أن يعلو في نظرها على الآخرين، أن يكون لها بمثابة الأستاذ الحقيقي، أن يبرر لها شتى مواهبه ويقنعها بأنه (شخصية) قوية و.. متربي. وهكذا فوجئنا بأننا جميعاً (شخصيات) قوية، ونشط التنافس بيننا في المواجهة والمتابعة والحصول على تقديرات أعلى حتى حالفها النجاح وحالفنا. وكانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى ما يشبه الرمز فيما بيننا، تشبه أن تكون هي الدافع وهي الحماس وهي الملتقى، وهي الأمل المشرق الذي يشد خطواتنا نحو الآفاق الجديدة المشرقة.

قد لا يصدق أحد أن «حميدة» دخلت امتحان الشهادة الابتدائية من منازلهم في نفس العام الذي قررت فيه الشروع في التعليم، إنني ما زلت غير مصدق حتى الآن ما حدث، ولست أدري بأية قوة خارقة للمألوف حققت هذه الفتاة هذا النجاح في وقت قصير جداً، ويكفي أننا ظللنا أربع سنوات نغترب في المدينة ونكلف أهلنا الجلد والسقط، سنة بعد أخرى حتى هيىء لنا دخول الشهادة، في حين أنها ـ في لعبة مرحة تشبه المزاح ـ دخلت امتحان الشهادة و.. تفوقت علينا؟.. نحن الذين تعهدناها بالدرس والتحصيل فيما تبقى من أوقات مذاكرتنا، جاورناها في أرقام الجلوس ولكننا لم نجاورها في القمة التي بلغتها.. لقد كان ترتيبها الأولى على المنطقة كلها بينما لم يحقق أحد منا درجة أعلى من المتوسط!..

شيء كالحواديت ولكن.. هل الحواديت إلا تقليد للحياة؟..

بفستانها الريفي الجميل وحذائها ذي الطراز العتيق، والجورب غير الشفاف، والشال الأحمر، واللسان الفلاحي الخالص بلا فلحسة أو ادعاء، كانت تقف بين لفيف من الطلبة والطالبات أولاد الذوات الذين جار عليهم الزمن وجاورهم أمثالنا من الأجلاف أخلاف الحفاة والأنفار وأبناء التجار والحرفيين. كانت تبدو وسطهم كحورية من عصور موغلة في القدم. فصيحة فطنة مرحة بريئة إلى حد يخجلك. كانت (فرجة) بحق: هذه هي البنت الفلاحة التي نشرت الجرائد صورتها.. صحيح.. ويقف الرائح والغادي ويكلمها ويبدي عجبه قبل إعجابه. وكان الحوش هو حوش المدرسة الثانوية التي التحقت بها «حميدة» على أن تسافر كل يوم وحدها.

أنا الوحيد من بين المجموعة زاملها سنوات في المدرسة الثانوية ولكن مشكلة الإقامة وحدي حلت بوجود أقارب لأمي في الإسكندرية دعوني للإقامة عندهم فكان باب السعد انفتح لي، وافرغوا لي حجرة خاصة بإيجار قدره جنيه واحد في الشهر، ولقد سعى أقاربي لدى شركة كبريت البنا فالتحقت بها عامل زهورات أثناء الإجازات الصيفية.. فطابت لي الإقامة هناك ولم أغادرها إلا للتجنيد بعد حصولي على الليسانس، وغابت «حميدة» من آفاق حياتي. حجبتها صور جديدة أخذت بلبي وكادت تسلخني من جلدي.. إلا أنها ـ «حميدة» ـ كانت تستيقظ فجاة كلما خلوت إلى نفسي لحظة. ثم أنني غادرت بحر الإسكندرية إلى بحر الحياة العكر. فغرقت في همومه ولكنني أبداً لم أنسَ «حميدة».. أين تراها الآن؟.. ماذا حققت.. لو حققت شيئاً ذا بال لسمعت على الأقل صوته. لبلغني بنفس الصدفة التي حملت إليَّ أخبار الآخرين، كم أنا مشوق إلى معرفة أخبارها!.. أيكون سر الأربعين عاماً من العمر هو

الذي يحركنا بقلق نحو أخبار الرفاق القدامى؟.. هل لنقارن بين نجاحاتنا؟ أم يكون ذلك الاهتمام بدافع من الحب الحقيقي لحميدة والاعتراف بقوتها وأصالتها؟..

و.. فجأة.. لطمتني زوجتي بالكلمة لطمة أفقدتني صوابي - وضعت ساقاً على ساق وعقدت ذراعيها على صدرها وقالت كالأم التي أمسكت على ابنها شيئاً خطيراً: (أمال إيه حكاية حميدة دي)! هه!.. نعم؟!.. قالت زوجتي مندهشة أنني تلفظت باسمها أكثر من مرة وكتبته في بعض أوراقي المبعثرة، وكنت أفكر في اختراع شيء أرد به لولا أنها صفعتني بورقة وردية اللون صعقتني رؤيتها، كنت قد حاولت كتابة خطاب لحميدة منذ بضع سنوات أسألها فيه عن أخبارها، ويبدو أن عباراته كانت تحمل أكثر من مجرد الرغبة في الأخبار. وكان لا بد أن أحكي لزوجتي حكايتها بكل صدق وأمانة، كنت أتصور أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، ولكنني فوجئت بزوجتي ذات لحظة رائقة تقول لي بكل حب وصدق: «أنا عاوزة أشوف حميدة دي». ولكنني لذت بالصمت في خجل، فقالت: «ما تيجي نسافر البلد ونسأل عنها». هتفت: «بتتكلمي جد». أقسمت أنها جادة فلم أتوان، تركنا الأولاد في عهدة حماتي وتسللنا في اندفاع صبياني وركبنا إلى البلد.. نبحث عن «حميدة».

العربة البيجو «٥٠٤» تسف الهواء وتهيله علينا تراباً وأزيزاً، وتكاد رؤوسنا تطير من النوافذ المفتوحة، ولا أحد يقول - ولو من باب الرجاء: «ما تقفلوا الشبابيك دي». وكنت أريد أن أقولها ولكنني أحجمت.. فركوب الأتوبيس القاهري كل يوم علمني أن ليس لي دعوى بأي شيء لا يخصني وحدي، فلربما تلقيت زجراً يؤدي إلى مشاحنة لا لزوم لها. لكن زوجتي تأففت من قوة الريح ونظرت

إلي.. فبيد مرتعشة مترددة رحت أرفع زجاج النافذة المجاورة لها، إلا أن صوتاً عدوانياً خشناً أتى من الكراسي الخلفية: «افتح الشباك يا أستاذ.. روحنا حتطلع».

نظرت خلفي فاكتشفت أننا ضمن أسرة كبيرة لا يربطها أي رابط، حتى العربة نفسها لم تنجح في الربط بينهم، بل على العكس بدا أنها عمقت فرديتهم، إذ جلس كل منهم مشيحاً عن الآخرين بوجهه يتلصص بعينيه كأنه يتوقع عدواناً، وإن تجرأ واحد وفتح حديثاً أو قدم سيجارة فإن مبادرته تقبل أي نعم وبترحيب شديد ولكن بلهجة تكشف عن أرضية من الحذر والخبث «وأنا صاحيلك».. «ومش عليَّ الكلام ده». فقد وقر في الأذهان مفهوم مدني عصري هو أن الشخص إن لم يكن في حاله تماماً فهو إما نصاب أو محتال!

انتظرت أن يعضد موقفي من النافذة أحد، لكن الصوت الخشن ظل قائماً في الأذن بلا اعتراض. فقلت له بتهذيب شديد أن الريح قوية ويجب أن نتقيها وإلا نسفت رؤوسنا.. فأشار إلى صدره وأنفه إشارة ذات معنى، فنقلت البصر فيما حوله فلم تلتقي نظرتي بطرف واحد، انصعت إلى النافذة صاغراً ورحت أخفض الزجاج قليلاً قليلاً ثم تركته في المنتصف.

وكنت أجلس بجوار السائق، وكان بدوره مستغرقاً في القيادة والتدخين، والعلبة الروثمان تطل أمامه مفتوحة، وقلت له:

- آخر قطر يروح «الشهداء» يطلع الساعة كام؟

رد بلسان فلاحي النطق:

- معنديش فكرة.

أحسست أنه صفق الباب في وجهي، فأشعلت سيجارة نفثت في دخانها ما تجمع فوق صدري من آهات قديمة. ولكنه عاد بعد برهة يقول: «حد يركب القطورات الأيام دي يا بيه!». ضحك الذين في الخلف ضحكة متملقة كأنه أدلى بحكمة عظيمة. قلت وأنا أمسح عرقي.

- خلاص؟.. الناس كلها ارتقت وبقى. عندها عربيات ملاكي!

قال السائق:

- وهو مين المجنون اللي يقف يستني قطر.. القطر ده معمول لناس ما ورهاش شغل!

- إزاي بقى؟..

- طبعاً.. ومالوش دعوة بالساعة خالص.. الساعة دلوقت أسرع منه.. ما هو الزمن لمؤاخذة بيتغير.. أيام القطار كانت الساعة بتساوي ثلاثة أربعة صاغ.. النهارده بتساوي ثلاثة أربعتلاف جنيه أحياناً ويمكن أكثر!!

اندهشت من هذا الدماغ اللامع وقلت لنفسي من حقه أن يشرب الروثمان، ما دام يحسب الوقت بهذه الدقة. عزم علي بواحدة فقبلتها، وقال وهو يشعل لي:

- أحسن حاجة للشهداء تاكسي بالنفر..

قلت لا بأس ولكنني أريد الذهاب لقرية متاخمة للشهداء اسمها «أبو دعموم». فنظر نحوي وقد انقلب إلى قط وديع مبتسم:

ـ أنت حضرتك من أبو دعموم؟

قلت: نعم.

قال: أهلاً وسهلاً.. بلد «جمالات المنسي».

اندهشت ثانية، صحت: هي «جمالات المنسي من أبو دعموم»؟

نظر لي بدهشة أكبر: ما تعرفش ولا إيه؟

قلت بصدق: أبداً والله.

قال ببساطة: تبقى حضرتك مش من هناك.

وقالت زوجتي بتوجس: اتهيألي سمعت الاسم ده أو قريته. اغتظت من جهلها الفاضح، قلت: ما تعرفيش «جمالات المنسي».. كانت عضو مجلس الشعب في فترة من الفترات.

وقال السائق متشككاً: لكن إزاي يا بيه تبقوا بلديات وما تعرفش؟؟

قلت له: أن صلتي بالبلد ليست دائمة، وأنني منذ توظفت في المدينة لم أعد أزور القرية إلا لماماً.

قال بثقة: «حضرتك من دار مين؟». فعرفت أنه فلاح قراري.

وقلت على الفور: «أنا فلان ابن فلان». امتدت يمناه نحوي مبسوطة: «أهلاً أهلاً.. بقى أنت الأستاذ فلان.. فرصة سعيدة خالص» سلمت عليه بحرارة. مال بدربة فائقة نحو زوجتي: «أهلاً يا مدام» وسلم عليها. قلت له: و«حضرتك مين بقى؟» ـ قال أنه أسف لأنني لم أعرفه، رحت أنقق فيه النظر بإمعان، راح هو يبتسم ولا

يلتفت، تعرفت أولاً على شعره.. نعم شعره.. فشعره الأحمر الهائش المبروم على هيئة خواتم صغيرة شعر تنفرد به أسرة كبيرة موسرة تسكن قرية صغيرة متاخمة لقريتي، ثم لهجته، نطقت على الفور: «أنت من عيلة فلان». اتسعت ابتسامته: «بالضبط.. وكنا زمايل - في فصل واحد في المدرسة بتاع البلد» صحت باسمه: «أهلاً شفيق»..

سلم علي مرة أخرى واضعاً في يده كثيراً من عمق الذكريات ومداعباتها الساحرة. ثم اندفع يحكي قصته، بعد حصوله على الابتدائية حرن على التعليم وطفش متفادياً اللوم والتقريع والتهديد، واشتغل ملاحظاً بورشة لاصلاح السيارات بالإسكندرية، عليه أن يكتب لكل عربة فيشة، ما نوعها ورقم رخصتها ورقمها في الوارد وماذا بها للإصلاح وكم على صاحبها أن يدفع عند الاستلام، فاكتشف أن أقل صبي من صبيان الاسطوات يرجع كل يوم بخمسين قرشاً على الأقل خلاف أجره الأسبوعي، أي أن هذا الصبي يحصل على ضعف مرتبه هو الأفندي حامل الابتدائية، فما بالك بالأسطى، ثم ما بالك بصاحب الورشة!.. فما كان منه إلا أن خلع القميص النظيف وارتدى العفريتة الزرقاء وقدم نفسه صبياً للأسطى، وأما الملاحظة فقد دبروا لها مغفلاً آخر من شبابنا المغرمين بالمكتب والجريدة وحسن الهندام.. ولم تمض سنوات طويلة حتى أصبح يملك ورشة خاصة به متخصصة في تصليح الفيات، وهو الآن يملك محلاً لقطع الغيار في عاصمة المحافظة التي تتبعها، وفي نفس الوقت يعمل على هذه العربة التي هي ملكه أيضاً، وقد تهيأ له بذلك أن يراعي محل قطع الغيار في عاصمة المحافظة، وأن يلحق بحساب الورشة آخر الليل في القاهرة.

خيل إلي أنني أتفرج على أسطورة من أساطير العصر. وسألته:

ـ وبتنزل البلد كثير؟

قال:

ـ إن شاء الله ناوي أفتح سينما في أبو*دعموم!

ـ سينما؟!

ـ تكسب دهب.. البلد حواليها عشرين عزبة وثلاثين كفر.. وكبرت قوي.

ـ من الميكانيكا للسواقة للسينما؟

ـ القرش يعمل كل حاجة.. معاك قرش تبقى زي ما إنت عايز..

أشرق في رأسي خاطر. هتفت:

ـ اسمع.. ما بتسمعش أخبار عن «حميدة»؟

ـ مين «حميدة»؟! أول مرة أسمع عنها.

ـ حميدة.. اللي.. اللي ربنا إداها سر آدم..

وابتسمت إذ رددت كلمة العامة كما سمعتها..

فتفكر قليلاً وقال:

ـ الحقيقة ما سمعتش عنها.. أشهر اسم في البلد هو «جمالات المنسي».

وقلت لنفسي:

- جئنا نبحث عن حميدة فظفرن بجمالات المنسي..

وقال السائق:

- اسمها «حميدة» إيه؟

انتبهت فجأة إلى أنني لا أذكر اسم أبيها، ونظرت إلى زوجتي كأنها تعرفه، ثم ابتسمنا معاً وأدركنا مدى عبثية الموضوع من أساسه، وجاءني إحساس بالرغبة في العودة، ولكن حبي للذكريات القديمة وطرافة المغامرة ولقائي برفيق الصبا الباكر جداً كل ذلك دفعني إلى مواصلة الرحلة. فجأة قال السائق: «حمد الله على السلامة». فعرفت أننا وصلنا إلى مدينة دسوق. وكان شاطىء النهر والروث والأشرعة والحناطير كل ذلك يقنعني أننا لم نغادر القاهرة.

رمى السائق يميناً بالطلاق ألا يأخذ أجر التوصيلة، وحينما أبديت إصراري على الدفع أطبق بيده على النقود دون مقاومة، ثم قال: «اتفضل معاية». فمضينا خلفه إلى موقف للسيارات قريب وإذ بنا أمام ساحة لتبادل الشتائم المقذعة التي هي علامة على الود فيما بينهم، وكانت هذه الشتائم في صبانا هي العلاقة المميزة على المدنية. توقفنا عند سيارة متهالكة، فتح سائقنا بابها وقال:

- «اتفضل يا بيه».

فقدمت زوجتي التي ركبت ثم ركبت بجوارها وأغلقنا الباب.

وقال سائقنا لسائقها:

- «وصل البيه أبو دعموم». فركب السائق وهو يستدير نحونا متمعناً ليتعرف على أصلنا. ثم أنه أدار المحرك وانطلق.

بقينا في صمت مدة طويلة إلى أن تضاءلت خلفنا مدينة دسوق ثم اختفت تماماً. وقلت للسائق الشاب: «اسمك إيه يا شاطر؟» فقال:

- «خدامك صلاح.. وحضرتك».

فقلت له على اسمي فقال أهلاً وسهلاً، ولم يبد عليه أنه يعرفني، ولما رأيته يغوص بنا في طريق لم أفلح في تذكره أبداً قلت له:

- «أنت نسيت إحنا رايحين فين»؟!

قال:

- «أبو دعموم».

قلت:

- «بس الطريق ده مش هوه».

- «ما هو ده الطريق اللي المرحومة عملته».

- مرحومة مين؟

- جمالات المنسي.

- هي ماتت؟! ثم شهقت زوجتي معي!.

- تعيش أنت من ثلاث أربع سنين كده ويمكن خمسة!

- ماتت إزاي؟!

- مات في الطيارة اللي كان فيها سلوى حجازي بتاع التلفزيون.

ـ لا حول الله.

قالت زوجتي متشائمة.. وأضاف صلاح:

ـ كانت مسافرة لجوزها مش عارف في ليبيا ولا في بيروت.

ـ جوزها مين يا صلاح؟

ـ أصلها لمؤاخذة كانت متجوزة ولد فلسطيني مركْزه كبير.

ـ تاجر ولا موظف؟

ـ لا.. فدائي.. كان زميلها في الجامعة وحبها.. واتجوزته.. وبقى يسافر يعمل حاجات ويرجع لها.

ـ حاجات زي إيه؟

ـ حاجات فدائية يعني.. ولما ماتت هو راخر مات على طول.. ما استحملش..

ـ مات إزاي هو راخر؟

ـ أهم بيقولوا عمل عملة كبيرة مات فيها.

ـ عملة إيه.. خير؟!

ـ عملة م اللي بيعملوها الفداوية.

ـ آه..

وابتسمنا أنا وزوجتي ابتسامة مرة المذاق، ثم حط علينا صمت عميق، وكان الطريق الذي شقته المرحومة بجهودها يزري بأي

طريق في أي عاصمة كبرى.. وسألت صلاح كيف شقته فقال إنها كانت تقف على كل البلاد المستفيدة من هذا الطريق وتجمع من أهلها النقود، وكان الرجل الذي لا يدفع أبداً حين يراها يخجل ويدفع لها ما تحدده بلسانها، وجمعت من الوزارات والهيئات ومن كل مكان له سيارة أو دابة تمشي على الطريق، وساعدها طلبة المدارس، حتى هم الآخرون دفعوا مصروفهم الصغير ولفوا معها في كل مكان.. و.. «تصور يا سعادة البيه.. كانت بتلم فلوس للفلسطينيين عشان يشتروا بيها بنادق.. ووالله والله يا بيه الله يرحمها بقى، كانت تروح الجامع وتقف تخطب زي الرجالة بعد الإمام ما يخلص، وتسافر مع العيانين وتجيب لهم عربات على حسابها، وتشتري لهم الدواء، حقولك حاجة يابيه مش حتسدقها.. في مرة ولد تلميذ مات في حادثة، واثنين تعوروا، القطر عمل بهم حادثة، وكانوا في الإعدادية.. تعرف.. ما استريحتش إلا أما جابت في البلد مدرسة إعدادية.. أي والله.. الأول جابت فصلين.. وبعدين بقى امتحان الإعدادية يحصل في البلد نفسها.. الله يرحمها بقى كانت أجدع من ميت راجل»..

أخذ دماغي يروح ويجيء، ويعصر علاياه بحثاً عن أصل هذه السيدة، فلست أذكر من بلدتنا شخصاً يدعى المنسي، ولم يكن تعليم الفتيات منتشراً أيام جيلنا.. ثم سألته:

ـ هي المرحومة كانت متعلمة؟

ـ إلا متعلمة.. آخر علام.. كانت متخرجة من الجامعة في كلية الحقوق.. واشتغلت محامية الأول عند واحد محامي كبير وبعدين فتحت مكتب في المركز.. وحياة المصطفى كان شغال ببلاش للي

معاه واللي معهش؟!

عبثاً حاولت التعرف عليها، وحتى صورتها لا أنكر أنني رأيتها في جريدة أو مجلة، فلا بد أن المرحومة كانت جادة ولم تكن تجد الوقت للدعاية لنفسها.

وقالت زوجتي بلهفة:

ـ أنت من البلد طبعاً يا أسطى..

ـ طبعاً..

ـ تعرف «حميدة»؟

ـ «حميدة» مين.. حميدة إيه؟

أسرعت قائلاً:

ـ اللي كانت ساكنة جنب محمود البقال.. ودارهم في الشارع العمومي.

حدق في الهواء برهة ثم قال:

ـ بصراحة أنا ما أصحاش للدار دي.. محمود البقال عارفه لسه موجود..

ـ والدار اللي جنبه؟

ـ مفيش دار جنبه يابيه.. دي كلها دكاكين ومخازن وقهوة..

اطلع ألاقيهم؟!

وأحسست باليأس الشديد ورحت أبحث عن ملامح شاردة من وجوه الذكريات القديمة. وكنا قد دخلنا في طريق فرعي تحفه البيوت على الجانبين، بيوت السرايات. أبداً ليست هذه قريتي، بدأت أتشكك من جديد، وخيل إليَّ أنني وقعت ضحية ظروف محتالة أخذتني في متاهة كاذبة.. وقلت للسائق: «هل هذه قرية أبودعموم؟» قال: «أيوه يابيه سلامة الشوف».. اضطررت للنزول، ووقفت أتأمل علني أتذكر شيئاً غائباً، ونزل «صلاح» وأخذ يشير إلى بعض البيوت:

ـ بالأمارة أدي المدرسة الإعدادية اللي عملتها المرحومة.. وأدي الجمعية الزراعية اللي هي عملتها برضه.. وأدي كابينة البوستة.. والتليفونات مع بعض.. أمال يا بيه آخر أبهة.. وعلى فكرة.. عواميد النور دي.. اللي واقفة زي الشاهد، كانت المرحومة هي اللي مجمعاها من الشجر.

قلت على سبيل المزاح: ولكن أين بيتنا إذن؟

قال صلاح: لا بد يكون بقى في البلد القديمة.

هتفت: أيوه وديني البلد القديمة.

قال صلاح: طب مش تقولي كده م الأول يابيه؟.. كنا رحنا في الطريق القديم؟

صحت: وهو الطريق ده ما يوصلشي؟

ـ قال: لا.. كان لازم يتعمل الطريق ده من هنا عشان يبقى موصل على حتت كثيرة.. إنما تقدر يابيه تخرم على القناية دهه

تنزلك وسط البلد.

ثم لم نمضِ أكثر من دقيقة، بل لعلها جزء من الثانية، وانفتح الدماغ على المرئي، أنت تفكر في إنسان أو يمر بذهنك شخص مراً عابراً، فإذا بك تراه في التو، فيقول هاتفاً: «يا ليتني فكرت في ألف جنيه مثلاً». وما حدث أنني وقفت حائراً مكتئباً للحظة أحاول فيها تذكر شكل «حميدة» وحجمها، فإذا بها - كالسحر أو كالخيال أو كالحواديت - تمرق أمام عيني خارجة من شارع صغير. حينئذٍ صحت كطفل سعيد لقي أمه بعد عذاب:

- أهه.. حميدة.. أهي هناك أهي.. بس خلاص لقيتها.

ثم اندفعت أجري خلفها.. ولحقني صوت زوجتي.

- يا راجل يمكن ما تكونش هي.

وناديت بأعلى صوتي:

- حميدة.. يا آنسة حميدة.

فالتفتت خلفها، فأيقنت أنها هي، وأشرت إليها، ولكنها لم تتلق إشارتي، حيث استدارت وتابعت سيرها من جديد، وكان علي أن أندفع جرياً لألحق بها. استدرت للسائق لاهثاً ارتجف.

- تعرف بيتها يا أسطى؟

قال ببساطة:

- ريح بالك بس دي ما اسمهاش حميدة.

إغتظت، قلت:

ـ لا يمكن أن تكون غير «حميدة»..

قال السائق:

ـ يا سعادة البيه دي مش حميدة.. دي أنا أعرفها كويس..

قلت:

ـ ما هو مش ممكن الشبه يكون قوي للدرجة دي..

وقالت زوجتي بابتسامة مشفقة:

ـ حميدة اللي أنت تعرفها مش ممكن تكون دي.. دي بنت سنها ما يزيدش عن خمستاشر سنة.

وأضاف السائق:

ـ يا ريت.. دي بتاع تلتاشر بس هي اللي فايرة.

واستدركت زوجتي:

ـ حميدة اللي أنت تعرفها لازم تكون سنها دلوقت على الأقل أربعين ثلاثة وأربعين سنة.. مش كانت في سنك.

هبط العبق على كل بقعة في جسدي، وأدركت.. إنني سقطت صريع لوثة غيبت عني كل تمييز.. ولم تقو ساقاي على حملي فاستدرت إلى «رفرف» السيارة، ولكن الصورة التي رأيتها الآن تتطابق تمام المطابقة مع الصورة التي في راسي، حتى القوام وتقاطيع الجسد، حتى الخطوة، تنكرتها بحذافيرها، وأجزم أن ليس ثمة فرق ينكر بينها وبين «حميدة».

اقترب مني «صلاح» السائق وبسط ابتسامته في سماحة وهو يقول:

- إنت يا سعادة البيه عايزها في حاجة؟

قلت له بإصرار:

- تعرف بيتها؟

قال:

- طبعاً.. أعرفها كويس قوي.. مش بنت بلدي!..

قلت له: وما اسمها؟

قال: اسمها «مصرية»..

ثم تريث قليلاً قبل أن يصفعني بالحقيقة التالية:

- تعرف دي تبقى مين يا سعادة البيه؟

قلت بلهفة:

- لا.. تبقى مين؟

قال برعشة من شفتيه:

- تبقى بنت جمالات المنسي:

هتفت ضارعاً.

- أرجوك.. وصلني بيتها.

- طب إتفضل أركب يا سعادة البيه.. والله لولا المرحومة..

ولف ثم ركب.. وانطلقت بنا السيارة تخوض في طريق متعرج ضيق، وكنت أشفق على السيارة، وعلينا، وأخاف إن انحرفت عجلة القيادة أقل انحرافة، لكنني كنت واثق أنها لن تنحرف، ذلك أن السائق كان متحمساً وواثقاً، إذ كان يفعل ذلك من أجل روح.. المرحومة..

أخيراً وصلت السيارة - بشق الأنفس - إلى كوبري صغير أعرفه جيداً. كان على أيامنا عالياً، أما الآن فلست أعرف ما إذا كانت الأرض هي التي ارتفعت أم أنه هو الذي هبط. من قديم كان يقوم في هذا المكان «سبيل». بحثت عنه، بل أنني أحسست بالعطش مثلما كان يحدث دائماً كلما مررت بهذا المكان.. لم تكن تنقطع عنه المياه قط. وقد رأيت بقاياه قائمة تشبه بقايا برج صغير أثري.

قلت للسائق: هذه هي «أبو دعموم» فعلاً.

فقال: إن سكان البلدة الجديدة يطلقون عليها: البلدة. ثم أنه داس فوق البنزين فجأة فصرنا في قلب البلد، وعرفت أن البيت القديم الذي كانت تسكنه «حميدة» قد انتقل - لا بد - من مكانه الذي أعرفه. على أن العربة شقت طريقها إلى حديقة النخيل الكبيرة، رقص قلبي ونحن داخلها، فقد كان من أحلام طفولتي أن أجوس بين النخيل حتى أصل إلى ذلك العمق الساحر. لم يكن النخيل إلا تمويهاً يخفي بداخله قصراً صغيراً من ثلاثة أدوار، ورأيت العربة تخترق الطريق إليه، وهي طريق مستقيمة معبدة ومفروشة بظلط ملون. قلت للسائق:

- المرحومة «جمالات المنسي» كانت تقرب لعزيز باشا أستفانوس؟

قال:

ـ لا.. لم تكن تعرفه!

قلت:

ـ ولكن هذا هو قصره الذي كان بمثابة استراحة يقضي فيها أسابيع وشهوراً من كل عام، وكان يظل ساهراً ومفتوحاً سواء هو موجود أو غير موجود، لأن طائفة من الخدم والتملية يسهرون بدورهم على هذا احتمالاً لقدوم الباشا في أي وقت.. وحين تركت قريتي وسافرت إلى المدينة نهائياً كان وضع الباشوات والبكوات قد تحدد ثم انقرض.

قال صلاح السائق فيما تتهادى العربة:

ـ ده بقى سكن المرحومة!

تبادلت النظر مع زوجتي، كأن اعتراضاً قد دفعنا لذلك، كان هذا لا يتناسب مع الشخصية التي في ذهننا. وكانت أبواب القصر وشبابيكه قد راحت تتفتح وتطل من خلالها رؤوس، ثم ما لبثت الرؤوس أن صارت بشراً يقتربون من السيارة يحاولون النظر إلينا في تدقيق، يحاولون التعرف في ملامحنا على أقارب لهم أو أصهار. فلما توقفت السيارة نزل السائق فنزلنا معه، وتقدم نحو عتبة السلم الأمامي قائلاً: سلام عليكم، فهبط رجل أشيب الشعر يتوكأ على عصا من الأبنوس، وقرب أذنه من صلاح فيما ينظر نحونا باستغراب وتوجس، وننظر نحن إليه بفضول وتمعن. قال صلاح بصوت عال:

ـ الجماعة بول عايزين الآنسة «مصرية».

قال ذو الشعر الأشيب والكلمات تصفر في فمه:

ـ مصرية مين؟

فحطت علينا خيبة أمل ثقيلة.. وقال صلاح:

ـ بنت المرحومة.. «جمالات المنسي».

صاح ذو الشعر الأشيب وهو ينقر الأرض بسن العصا:

ـ أ.. ه.. وه.. مش بيتها يا ابني.

ـ هي مش كانت ساكنة هنا؟

ـ دي مش هي يا ابني.. منهم لله البعدا.. لا حول الله..

ثم راح يمصمص بشفتيه، والعيون المتلصصة من النوافذ تختفي لتظهر من جديد في أماكن أخرى. والعجوز يواصل:

ـ دي كانت واخدة أوضه فوق هي وأمها.. وكانت بتخش لها من السلم الوراني.. أما البيت فكان واخده الاتحاد الاشتراكي ألف رحمة تنزل عليه!

كانت نبرة التشفي واضحة وبعمق في صوته، ثم أنه استدار غير عابىء بنا وصعد الدرجات وارتمى فوق كنبة من الخيزران ومدد ساقيه على ترابيزة من الخيزران أيضاً.. وأحسست أنني أريد أن أبصق في وجهه مائة عام على الأقل!..

وقال صلاح بآخر ذرة فيه من أدب:

ـ أمال حضرتك تبقى مين؟

ضرب الأرض بعصاه في قوة. صاح ورذاذ فمه يتطاير نحونا:

ـ أنا صاحب البيت ده.. خلاص انفكت عنه الحراسة.. جمالات المنسي دي زمان وجبر.. دوروا عليها هناك.. مطرح ما كانت في أصلها القديم!..

ـ مصمص له يرجع لأصله!

نظرنا نحو مصدر الصوت، فإذا بها عجوز كركوبة بيضاء الشعر كأنه باروكة من التيل. ورغم أن العدوان كان واضحاً تمام الوضوح في وجهها وفي تشنج أطرافها إلا أنها قالت بلهجة مهذبة.. كأنما لترينا جوهر أصلها:

ـ شوف يا ابني.. إحنا ما نعرفش حاجة عن المنسي بتاعتك دي..

إحنا خدنا حكم بالطرد.. وخدنا البيت.. عايزين مننا إيه تاني؟..

كفاية محرومين من بيتنا عشرين سنة.. وأولادنا سكنوا بالأجرة زيهم زي أي واحد.. حلوا عننا بقى.. البيت أهه زي ما أنتوا شايفين مليان من فوق لتحت.. فيه الفاميليا كلها.. وإحنا ما صدقنا ـ وعمرنا ما حنفرط فيه تاني.. خلاص.. لو كنا نعرف من الأول أن الحكاية هزار بايخ كده ماكناش سكتنا الوقت ده كله!

أشفقت على السيدة رغم كل شيء. تبادلت الابتسام مع زوجتي. هزأ منها صلاح بحاجبيه وشفتيه فأضحكني.. وقلت لها بكل أدب:

- يا ستي إحنا ضيوف من القاهرة.. وبندور على واحدة قريبتنا.. بدال ما تقول لنا اتفضلوا قهوة.. ع العموم إحنا متشكرين.. يلا بينا يا أسطى..

خرج شاب من الباب حلو المظهر جميل التقاطيع. نصفه ابن ذوات قديم ونصفه شقي، لكن شقاوته هي الملمح البارز والحلو في طلعته. كان يمسك في يده مجلة «الشبكة». ويمسك باليد الأخرى جهاز تسجيل تتصاعد منه الأغنيات الأجنبية الراقصة. قال: «فيه إيه؟». قال ذو الشعر الأشيب: «سيبك منهم يادحة أنا عارفهم كويس.. شربت منهم كثير وطعمهم مر ريقي وعلقم صدري». وقالت المرأة العجوز: «مفيش حاجة يا ممدوح.. دول ناس بيسألوا عن بيت المنسي». تقدم «ممدوح» إلينا باسماً:

- تعالوا أوريكم بيتها.

كدت احتضنه. انصعت وراءه، تذكرت السيارة فرجوت صلاح أن يبقى. فربما فشلنا فيعود بنا. لكن «ممدوح» قال لي: «متخافش فيه عربات كثيرة.. سيبه يشوف شغله.. مع السلامة أنت يا أسطى». فعدت إلى صلاح وأعطيته حسابه وشكرته وأعطيته أيضاً عنواني في القاهرة. ومضيت مع زوجتي خلف ممدوح، وكنت أعجب من ارتفاع صوت التسجيل وأرى أنه يصنع فضيحة كبرى في الشوارع ويلم الناس علينا، لكنني خشيت أن أقول له: «وطي الصوت شوية». ولم يكن يثير دهشتي - سوى رؤيتي لبعض الذين اكتشفهم فجاة وأكاد أنطق بأسمائهم رغم عوامل الزمن الواضحة عليهم وكيف أنهم يتوقفون ناظرين إلينا في فضول دون أن يتعرفوا علينا. وهمست زوجتي في أذني:

- بعد الفضيحة دي كلها مفكرناش حنقول لها إيه ولا إحنا عايزين إيه؟! فغمزتها في يدها قائلاً:

- مش مهم.. إمشي بس.

تباطأ ممدوح وتقهقر حتى حاذانا، فعرفت أن البيت قد اقترب، إلا أنه - ممدوح - توقف أمامها.. المدرسة.. مدرسة البلد الإلزامية التي تعلمنا فيها فك الخط. التحمت عيناي بالجدران وصارت تتحسسها بقعة بقعة، وتعلق بنظراتي بصمات كثيرة ليدي: خربشات يدي والأحبار التي مسحتها فيها، كلمات سوقية كتبتها على جدرانها. تحت هذا الشباك بالتحديد زنقتني الحاجة ذات مرة فأقعيت وقضيتها دون حرج، ونالتني بسببها علقة بالفلقة، كانت المدرسة كابية وغارقة في الرطوبة، وزحفت مبانيها فشغلت الحوش الكبير الواسع. صاح ممدوح بلهجة نصف بندرية:

- يا عم عيد.. يا عيد!

انفتح باب ملاصق لجدار المدرسة، يصنع مع جدار يتوازى مع جدار المدرسة حارة سد، أطل منه وجه عجوز تجاوز السبعين من العمر: عم عيد!.. كيف.. فراش المدرسة الذي كان يسقينا إن عطشنا، ويرافقنا إلى دورة المياه، ويوزع علينا الكتب، ووجبة الغداء الممنوحة لنا من الوزارة، ويرفع أقدامنا بالفلقة لتنال حظها من بوصة المعلم.. ها هو ذا عم عيد بلحمه ودمه: هناك أشياء تبقى دائماً في هذه الحياة لتجسد القديم وتحيي الماضي الذي لا يموت. نفس الوجه، نفس البسمة المحملة بالألم الغامض، ويده التي لا تني تهش الذباب حتى لو لم يكن هناك ذباب. نظر إلينا بدهشة كبيرة، قال:

ـ أهلاً سي ممدوح.. اتفضلوا.

توقف «ممدوح» برهة كأنما ليعلن عن رغبتنا الحقيقية في التفضل فغاب «عم عيد» في الداخل برهة طويلة ثم عاد ففتح الباب هذه المرة على وسعه، فطالعتنا باحة مستطيلة مفروشة بالحصير الملون المزخرف، بزخارف إسلامية، وثمة مساند بحذاء الحائط، وطبلية قديمة، وعدة شاي متناثرة، وبلاص مائل وسط فجوة رطبة، وطشت وإبريق، وثمة كومة من اللحم البشري تتقرفص في ركن بعيد لباب قاعة جوانية في المواجهة.

تنحنح «ممدوح» قائلاً: يا ساتر.. ثم خطا إلى الداخل فتبعناه على استحياء، وسلمنا على «عم عيد». ولم أشأ أن أنكره بنفسي في التو. كان ينظر إلي بإلحاح وتدقيق.. فما إن خلعنا أحذيتنا وتربعنا فوق الحصير حتى جلب الوابور وراح يعطيه نفساً. ثم أن البراد تربع فوق النار، وألقمه «عم عيد» حفنة من الشاي ثم نظر إلينا قائلاً: «أنتو شرفتوا».

قالت زوجتي:

ـ ما تعرفش الأستاذ ده يا عم عيد؟

وأشارت إلي، فانتهز الفرصة وركز البصر في وجهي وقد انبسط وجهه حتى صار كطفل صغير، قال: «شكله مش غريب علي».. ثم كشر حاجبيه فجأة وصاح: «شبه دار فلان مش كده». صاحت زوجتي: «برافو».

هتف عم عيد: «تبقى أنت فلان.. أهلاً بيك».. انتشيت راقبت وجه ممدوح فرأيته قد انتشى هو الآخر كأنما وقف على حقيقتنا

واستراح من التخمين. ثم راح ينظر إلينا نظرات ذات معنى ثم قال لعم عيد:

- أصلهم كانوا جايين يسألوا على المرحومة.

حينئذٍ جاء صوتها قوياً هادراً حكيماً:

- لسه فيه حد بيهمه أمرها.. ويسأل عليها.. الحمد لله.. أنا كنت عارفة ومتأكدة أنها لازم تفضل عايشة.. وربنا عمره ما خيب لي أمل.

عرفتها من صوتها.. وكانت الدموع في عيني قد شطرت المرئيات كلها إلى نصفين، وكان وجه «عم عيد» قد انزرد واحمر واكتسى بحزن جليل بلغ حد الابتسام العظيم. كانت رأسي تدور وتدور وتدور، وكل شيء أمامي يدور بسرعة فائقة. قال: «عم عيد»:

- ما توحد الله يا أستاذ.. إحنا كنا نسينا..

فعرفت أنني كنت أبكي.. وكنت أبكي بحرقة شديدة، وكنت أحس أن قوة في الأرض بالغة ما بلغت من الجبروت لا تستطيع أن توقفني عن البكاء الجارف. وقال «عم عيد» كأنه يزكي في نفسه الإحساس بالحزن:

- دي كانت حلم، يا سعادة البيه.. كانت لحظة واتخطفت.

وقال ممدوح كأنما ليدافع عن عشيرته:

- كل اللي خدمتهم في حياتنا عضوا إيدها.. يعني النمس ده مثلاً.. ما كانش قادر يعمل حاجة لبنتها؟.. الحاج نمس مش فاكر يا عم عيد يوم ماشغلته مخزنجي في الجمعية الزراعية؟.. شوف كان

بيجري وراها إزاي؟.. وفي الانتخابات كان ماشي وراها زي الخدام..

- عشان مصلحته..

- طبعاً.. كان بيكسب من وراها.. دلوقت بسم الله ما شاء الله عنده عمارتين في المباني الجديدة..

- هنياله.. اللي يكوش ربنا يسهل له بس يشبع!

وقال «ممدوح» بحقد شديد:

- النمس ده.. أيام ما كانت المرحومة مشغولة بمصالح البلد والناس.. كان هو مشغول بالتكويش.. وصلت ثروته إلى حد أنه يشتري عمارة المركز.. ويكتبها باسم مراته.. ويخدع المرحومة ويأخذ منها خلو رجل عشان يديها شقة في العمارة تعملها مكتب.. والمرحومة من طيبتها ما تعرفش أن العمارة بتاعة مراته يعني بتاعته!

- يا ريتها جات على حد كده!..

هكذا قال «عم عيد» مشوحاً. ثم أضاف:

- بمجرد المرحومة ما ماتت خد عفش المكتب وفاء بالإيجار المتأخر!

أحسست أن في دمي أشياء تأكلني وتقرض أعصابي.. ثم قال عم عيد:

- المرحومة ما كانتش موظفة.. ما سابتش لليتيمة أي حاجة..

والمصيبة السودة.. البنت كانت في مدرسة بالمصاريف.. رفدوها..

ودخلناها مدرسة البلد الإعدادية.. قالت ملهاش مكان.. ولحد النهار ده مش لاقيين لها مكان!

هتفت:

- هي فين الآنسة «مصرية».. عايز أشوفها.

لاحظت الفرحة قد أشرقت على وجه ممدوح، وتحفز. ولكن «عم عيد» شوح بما يشبه الغمز:

- مش هنا.. راحت مشوار وجاية.. أظنها بتملي ميه من حنفية العداد.

ثم اتجه إلى «ممدوح» فجأة:

- أهلاً سي «ممدوح».. كيف الحال؟..

وكانت في لهجته نبرة واضحة تقول له «قوم بقى روح، ومن الواضح أن ممدوحاً قد أحسها، فما إن شرب الشاي الدور الثاني حتى قام وسلم علينا ثم انصرف، فحل بالمكان سكون خرافي، بعدها مباشرة صاح «عم عيد»:

- تعالي يا مصرية!

فنظرت إليه، فتلقف نظرتي وأجاب عليها:

- لمؤاخذة.. حاكم الولد ممدوح ده حاطط نقره من نقر البنت.. داير عليها يعني.. مش عشان يتجوزها.. لا.. زي ما تقول يعني عايز يلعب معاها أو يلعب عليها. المهم أنه عايز يلعب وبس!

فكرهت «ممدوح» بعد أن كنت أحببته. واستدرك «عم عيد»:

- بس البنت بتصده.. وما بتعبروش خالص.

ثم أن «مصرية» أقبلت.. أقصد «حميدة».. نفس الخدود المستديرة الحمراء من فرط الخجل، يطل منها نبل ونكاء لامعين متوهجين، ونفس الابتسامة الواثقة البريئة المعبرة عن الانبهار وحب الرؤية. سلمت علينا ولثمت يدها هي، كأنها تلثم أثار أيدينا. ثم جلست في مواجهتنا، وقلت لزوجتي:

- هذه هي «حميدة».. حميدة التي كنت وسأظل أعرفها.

فانكسرت الإشراقة الطبيعية في وجه «مصرية».

وجاء صوت العجوز:

- لسه فاكر يا قلب أمك.. ياه.. حميدة..

وابتسم «عم عيد»:

- دا أنت يابيه تعرف المرحومة من زمان قوي!

- طبعاً.. مش كنا زملاء وأصدقاء؟..

- ما هو باين أهه.. بدليل إنك بتقول عليها «حميدة»..

- الله.. هي ما كانش اسمها حميدة؟..

- حميدة كان اسمها اللي أحنا طلعنا عليها من يوم ما تولدت.. لأنها كانت شبه خالتها.. الست بتاعتي الله يرحمها.. لكن أبوها قيدها باسم تاني.

- بقى حميدة.. كان لها اسم تاني في شهادة الميلاد؟..

- أمال.. كان اسمها جمالات.. جمالات عبد العزيز المنسي؟..

أحسست أنني أهبط في جب عميق مظلم غاية الإظلام. أحسست أن حياتنا كلها من أولها إلى آخرها تنشأ وتؤوب إلى هذا الجب، وأن كل الإشراقات والتمنيات والأحلام إن هي إلا إطلالة سريعة خاطفة تطل خلالها رؤوسنا من حافة هذا الجب ثم سرعان ما تغطس فيه من جديد.. إن هو إلا عفن في عفن في عفن.. آه لو يستطيع الإنسان أن يتحرك الآن، أن يفعل شيئاً، أن يحتضن هذه الوثيقة المشرئبة المتحفزة، إن لو بإمكانه أن يهيىء لها مناخاً، آه لو.. آه لو.. ولكن.. كيف.

- مش ناوي تسلم على الحاجة؟..

انتشلني صوت «عم عيد»..

- يا ريت؟!..

ثم نهضت واقفاً، وتقدمني «عم عيد» إلى القاعة الجوانية، مخزن للظلام الكالح العطن، رائحة الرماد تنبعث من فرن في مدخل الباب، تحسست الظلام حتى لمست يداً معروفة لكنها قوية ومتينة من فرط ما عملت وناضلت.

- إزيك يا حاجة؟

- إزيك يا ضنايا أهلاً وسهلاً..

ووسعت بجانبها مكاناً على المصطبة الكبيرة المحتلة كل فراغ القاعة. جلست على الحافة..

- هل تعرفيني يا خالة نوحاية؟..

ابتسمت.. تبينت في ابتسامتها كثيراً من دماء «حميدة».. و«مصرية»، فأحببتها حباً شديداً مدت يدها وملست على رأسي وكتفي، استكنت تحت يدها كأنها سترقيني..

- أنا فلان.. ابن فلان..

- كنت بتذاكر مع المرحومة.

- البقية في حياتك..

- البقية في «مصرية»..

- ربنا يأخذ بيدها..

- هو لن يتركها.. هو لا يكذب.. هو لا يرضى.. هو لا يغفل..

- ألم تترك المرحومة شيئاً «لمصرية» على الاطلاق!

- نجت المرحومة من الطوفان.. غرق الكل ونجت هي.. فذهبت بكل طهر.. وهي لم تمت.. جسدها الطاهر ستظل تسفعه الشمس حتى تعجز عن فنائه فتجعله لؤلؤة كبيرة تضيء حياتنا.

- شيء مفزع والله يا خالة.. أن تواجه البنت حياتها بلا سلاح..

- كذب.. البنت هي الأخرى نجت من الطوفان..

- كيف؟..

- لا تملك شيئاً.. لا تسرق شيئاً.. لا تتاجر في حرام.. لا تفرط في شرف..

هي الأخرى نجت من الطوفان.. الكل غارق.. في كل شيء

غارق في أي شيء غارق.. في السيارة غارق في ثيابه غارق في تكوينه غارق في أكل السحت غارق.. ومن لم يحصل على كسب من هذا الزمان هو الناجي من الطوفان.

ثم بسطت يدها أمامي لاوية شفتيها في تهكم حكيم. لحظتها أحسست بأنني انتصب واقفاً لأواجه الحياة من جديد وبكل نزق الشباب المنصرم.



مغامرات الأمير في البر المصري

لا تضحكوا يا أصحاب، فأنا قد عشت تجربة الإمارة. سمعتم طبعاً بها وضحكتم حتى تعبتم فيما علمت، أثناء انغماري في الإمارة كانت تبلغني أخباركم وسهراتكم وموجز لآخر الأنباء المسائية، وكنت أشتاق للمناكفة والتعليقات الواجبة لولا أنني كنت أمر بأحلى وأمر تجربة في حياتي: تجربة الإمارة..

ولست أمانع في أن أحكيها لكم بكل حذافيرها، إذا وعدتموني بعدم تهييف ما أحكي، أعني بالإغراق في الضحك.. أنا معكم في أنها مضحكة حتى النخاع، لكنكم يجب أن تكونوا معي في أنها - أيضاً - مبكية حتى النخاع!..

وأنا لم أدخل تجربة الإمارة دفعة واحدة، إنما سبقتها إرهاصات «ثورية» كانت تطرأ علي كلما نزلت إلى أرض مصر الخصيبة. أتعرفون لماذا هي خصيبة؟.. أقول لكم أن بنت النيل عند الفيضان تفيض بلا حساب، مثلما تنسرب مياه النيل دافقة إلى أماكن بعيدة غريبة، فتصبح ترعاً وأخاديد وقنوات وبساتين من العدم، وتصنع أيضاً مستنقعات كثيرة، ذلك أن الأرض غير مستوية كلها ولا بد أن تحتجز الماء إما في بقعة هابطة بطبعها وإما بين عدد من الصخور والنتوءات الجبلية البارزة.. وهي لا تفرق بين غريب وقريب، ولا بين

أصيل ودخيل، فهل يختار ماء النيل مهاده؟ وهل يمنع نفسه عن أي بقعة بمزاجه؟ ذلك أن مزاجه كان سلسبيلاً وعملية الاندفاق إلى أبعد المدى هي مزاجه..

كنت قد ادخرت من مصروفي اليومي مبلغاً أمسكت عن إنفاقه في مدن الجزيرة، ونزلت به سائحاً إلى أرض الكنانة وفي مقدوري أن أعيش أسبوعاً واحداً على الأكثر عيشة فوق الكفاف بدرجات قليلة، غير أنني ويا لهول ما اكتشفت، عشت بهذا المبلغ البسيط شهراً كاملاً أنفقت فيه ببذخ وعن سعة، وكنت أتساءل: هل يمكن أن تكون رخيصة إلى هذا الحد؟ أقصد أن تكون هكذا بأقل التكاليف؟ أنت هناك لا تبحث عن شيء مطلقاً، فكل شيء يجيء لحد عندك ويعرض نفسه عليك سلعاً مدعومة من الحكومة. طوائف طوائف من الحاجيات تقبل عليك ملباة بطوائف من البشر مستعدين للتفاني في خدمتك. ولهذا فقد أحسست بعد برهة قصيرة أن الناس ها هنا يؤمرونني، فأنا الذي أرتهب من رؤية الأمير وأقيم له ألف حساب، أنا الذي لم تكن الإمارة من دائرة طموحاتي بل كانت فوق مستوى خيالي، وجدتني فجأة أتقلد الإمارة وبأرخص التكاليف.. فأدركت أن الإمارة هذه مسألة غير مكلفة على الإطلاق بل هي سهلة وميسورة إذا ما تواجد إنسان مثلي في أرض الكنانة في زمن كهذا الزمن.. حسن سأقول لكم الحكاية وبالتفصيل. أرجوكم لا تتعجلونني بملامحكم، وهاأنذا أقسم لكم بكل المقدسات أنني لا أبالغ ولا أتجاوز الواقع قيد أنملة، فهل ترونني أدلس على نفسي؟. أنتم تعلمون أنني مكافح.. أخذت الحياة بالذراع نزلتها حمالاً في الميناء وتاجرت في مياه البحر فلما تكون لي قرش كانت قوافل المصريين واليمنيين والفلسطينيين والباكستانيين والهنود قد أخذت تزحف علينا

طالبة من يستخدمها لقاء أجر يستطعمون به الحياة لكنهم من غفلتهم ومن شراقي الحرمان يشترون به كاستات وأجهزة لا لزوم لها على الإطلاق. أكون غبياً إذا تركت هذه الأيدي تضيع مني هباء.. افتتحت متجراً واشتريت توكيلاً للسيارات وأقمت ورشة كبيرة، واشتريت قرضاً بفائدة مضاعفة، كما اشتريت تشكيلة هائلة من أولئك البشر ما بين مهندس ومحاسب ومساعد وخفير، أطلقتهم كلهم في ساحتي وجلست أتابع حصاد الآلة الحاسبة.. وفي الواقع أنه لشيء مبهج حقاً أن تصبح صاحب عمل وتحت أمرتك من يعملون عنك.. فأنا إذن لي مع الإمارة تاريخ نبع من ها هنا ومن ها هنا ـ أي أنني أحمل بعض الأصالة وإلا ما نجحت في تجربة الإمارة..

أقول إنني قد مكثت في القاهرة شهراً بطوله أتمتع بلقب سمو الأمير، ويزول عني الحرج شيئاً فشيئاً حتى صرت أضيق إذا نسي أحدهم ذكر هذا اللقب، ينحني لي السعاة والبوابون والسفرجية والأفندية كلٌّ على طريقته وبإغداق حتى أصبحت أفهم كثيراً في معنى الانحناء وفي مختلف صوره وأشكاله، أستطيع أن أؤلف كتاباً في صورة الإنحناء ولا تنفد مدخراتي من الصور التي عشتها. وفي البداية كنت أعطي لكل من ينحني أجراً، لكنني سرعان ما تنبهت إلى أن الانحناء قائم بدافع مجهول الهوية، فكان ثمة قوة مجهولة تدفع الأجر نيابة عنك، وما عليك إلا أن تقابل هذا كله كأنه شيء طبيعي بالنسبة لك. فلما قارب الشهر على الانتهاء وأوشكت نقودي على النفاد قدر لي أن أكتشف جواً ساحراً وعالماً غنياً يشبه الجنة بل لعله كان نوعاً من الجنة بدليل أنه على مشارف الأفق يتاخمها جحيم. طاب لي البقاء ولكن السفر المحتم انتزعني من سحر

التجربة قسراً، فظل الحنين يدخر نفسه ويدخر لنفسه شهوراً ثم سنوات حتى رجعت إلى القاهرة الرجعة الكبرى..

خلال الأيام الأولى التقطني ثلاثة شبان من ساحة الفندق الكبير لا أعرف كيف، لكنني فوجئت في لحظة بهيجة أنني محاصر بهم في الاستراحة الكبيرة، وأننا نتبادل الحديث كأصدقاء قدامى، والواقع أنهم هم الذين كانوا يتحدثون وكنت أنا أستمع كالمتفرج الذي تتلى عليه هذه الأشياء بغية إمتاعه، فأعلق أو أضحك أو أشمئز أو أطلب لهم بعض المشروبات. كانوا يتحدثون في كل شيء وأي شيء، فما عدت قادراً على تمييز الحكاية من الخبر من النكتة من المأساة، غير أن شعوراً مجسداً كان ينتابني أحياناً فأحس كما لو أنني مطالب بالنظر في شؤون الرعية! ثم أن منظرهم صار مألوفاً لديّ وصرت أقبل عليهم مثلما يقبلون علي. فسرعان ما نلتحم في جلسة في مكان ما. وقد ادعى أحدهم أنه صحفي ومحرر سياسي كبير، وادعى الثاني أنه منتج سينمائي، وادعى الثالث أنه صاحب شركة للسيارات، وهذا الأخير هو الذي جعلني أؤكد أنهم جميعاً يدعون.. رغم أن المنتج السينمائي وجّه الدعوة باسمي إلى عدد من النجوم الشبان، فلبوا الدعوة شاكرين وسهروا ليلة على حسابي، وعرضوا أمامي (نمراً) مختلفة من ملاعيبهم التمثيلية المتقنة.. ورغم أن صاحب الشركة المزعومة زودني بمعلومات هائلة عن أنواع السيارات وطرائق استخدامها وكيفية تسويقها.. كل هذا قد حدث ولكنني أحس بادعائهم ربما لأنهم نجحوا في تقليدي الإمارة وأنا لست منها في شيء.. فكنت أحس كأنهم يلبسونني ثوب الإمارة ليمرقوا تحت رايتي من كل حساب.. فانزعج لبرهة ويزول الانزعاج بظهور تفاهة التكلفة.. مع ذلك أسلمت قيادي لهم وقد قررت أن

أعيش الإمارة بحق وحقيق، فما دام هناك من يصرون على تأميري فلأكن أميراً، أدفع الفتات وأحصد النواة، وعلى هذا خرجت من الصفقة رابحاً، لقد استخدمتهم دون أن يشعروا، ظنوا أنهم يستقطعونني وأنا في الواقع أستفيد من ورائهم باعتبارهم منافذ بارزة، باعتبارهم على الأقل حاشية تصنع الأبهة لي حتى أبيع وأتعاقد مع عملاء يحضرون لحد عندي بواسطتهم هم وبتشجيعهم وإذكاء حماسهم.. وهكذا صرفت في رحلتي السياحية الأولى مبلغاً تافهاً وعدت إلى متجري بأرباح ضاعفت رأس مالي. المدهش يا أصحاب أنني تعلمت منهم كيف استخدمهم، فقد ردد الصحافي المزعوم أمامي ـ من بين ما ردد ـ كلمة علقت بذهني وأضاءته، حيث قال: يقول الحكيم لا أدري من أن الأمم تقاد باستثارة شهواتهم أسهل مما تقاد بالاهتمام بمرافقها.. فتنبهت إلى أنني كلما تنازلت عن بعض الهدايا اللامعة تكاثف الطابور من ورائي ووضع نفسه تحت إمرتي.

لبيت دعوة لحضور فرح، العروس ابنة أخت خبير السيارات والعريس مهندس زراعي حديث التخرج، وكنت أعلم أن العروس تبغي هدية محترمة وأن العريس يبغي عقد عمل كما رجحت، ومع ذلك لم أتراجع، فأما عقد العمل فيمكن الوعد به وأما الهدية فإن ثمنها مهما ارتفع لن يوازي حجم بهجتي بحضور حفل زفاف مصري، وباعتباري الأمير فسوف أكون نجم الحفل.

كنت قد استأجرت بواسطة خبير السيارات عربة فارهة بعشرة جنيهات في اليوم أنتقل بها. فلما نزلت إلى الجاراج لأطلع بها تبين لي أن الفرح ليس في المدينة، وأن أكثر من عربة فارهة تنتظرني لتقلني إلى حيث يوجد الفرح. جلست في الكرسي الخلفي وحدي

تكريماً لي، وجلس الصحفي بجوار السائق الذي هو خبير السيارات، وتبعتنا عربات أخرى راحت تثير الفضائح على متن الطريق وهامشة صياحاً وتزميراً وطبلاً وزغاريد كأنهم يشهدون الكون كله على أن ثمة لحظة فرح تتحقق الآن!..

انسحبت المدينة وراءنا وراح سرادق الأضواء يلفظنا إلى درب في الظلام مظلل بأضواء القمر، مضمخ برائحة الأرض الخضراء النيلية. وكانت الضجة النزقة ما تزال تبلغنا من السيارات الخلفية التي تداعبنا فتقتحمنا فجأة ثم تتجاوزنا ثم نتجاوزها مرة أخرى، ورائحة العطور النفاذة تنبعث رائحة غادية فتثير النشوة في عروقي. ثم أخذنا ندخل في سرادقات ضوئية جديدة فنخترقها فإذا هي مدينة سرعان ما تلفظنا من جديد إلى الدرب المظلل بضوء القمر.. فعرفت أن الفرح مقام في قرية صغيرة في منطقة بعيدة.. وأحسست كم هي واسعة وشاسعة أرض الكنانة.

بعد ساعات امتزجنا فيها بالليل الأهبل الهايف التحقنا بليل آخر أميل إلى الرصانة والعمق، خرج هذا الليل لاستقبالنا في منتصف الطريق إلى القرية الغائصة في سفح جبلي كحصن مكين، وأخذت العربات تهبط في طريق مرصوف نحو مدخل بدا أنه مدخل حديقة ظلت العربات تجتازه لفترة طويلة وعناقيد الضوء الكهربى الملون تصنع تاجاً من الدر والياقوت، فعرفت أنني المعني بشكل التاج هذا، وأنه حركة موجهة إليَّ وحدي. وكنت أرى على الجانبين حظائر من السلك والخشب وخلايا نحل أنيقة، وبحيرات صغيرة وأحواضاً مزروعة، وأشجاراً وحدائق، وأبراج حمام في الخلفية البعيدة تنحشر بين شرفات عالية، وسمعت نقنقة دجاج وخوار أبقار وهديل الحمام وثغاء ماعز.. فأدركت أنني في مزرعة كبيرة. فلما

تجاوزنا هذه المدينة السحرية الصغيرة ونحن لم نزل على نفس الممر طالعنا الهدوء من جديد شاملاً وموسيقياً. ثم انحرفت العربة قليلاً واستقرت تحت تعريشة أنيقة قائمة على عمدان من الحديد المصقول.

ثم نزلنا وأصوات أبواب السيارات وهي تنغلق خلفنا تصنع صوتاً خفيفاً كأنه أزناد البنادق، وكانت شرفة القصر عريضة عملاقة دائرية تزدان حافتها بأفرع الضوء، وتنسكب منها وجوه ساطعة تنطلق منها عيون تتزاحم وتتقافز وتجوس بيننا باحثة مدققة مشرئبة، فأدركت أنها تبحث عني، ثم أنها استقرت جميعاً عليَّ حينما تراجع الركب كله أمام الدرج وقدمني، فمضيت أجرجر أطراف (الدشداشة) مطوحاً يمناي في وقار كأنني أصعد الشرفة لأخطب في رعيتي، وما أن صافحت قدمي آخر الدرج حتى انبعث تصفيق حاد مرح تطايرت خلاله الزغاريد فأيقظت أسراباً من العصافير وسابقتها في الرفرفة بنشوة حيرى. من خجلي صرت أبحث عن العريس الحقيقي الذي كان قد انزوى في آخر الركب مهملاً يتفرج بانبهار.

سرحت يدي وجالت بين كتل من الأيدي على مختلف أنواعها مسلمة مستشعرة الحرارة الساخنة، وكان لا بد لسمو الأمير الذي تنازل وشرفهم بالحضور أن يقول كلمة بهذه المناسبة. ولم يكن ينقص طقوس الإمارة الرسمية في هذا الحفل الكبير سوى كاميرات التلفزيون، وفيما عدا ذلك فقد حاصرتني أجهزة التسجيل والتصوير، وجاءت العروس وسلَّمت عليَّ وقدمت لي طاقية من الصوف ومنديلاً من الحرير لم أرَ في حياتي مثيلاً لاناقتها، فأعطيتها بدوري علبة مجوهرات مفتوحة يطل منها خاتم سولتير، هدية صغيرة لكنها تليق

بأمير، ورغم أنني كنت أستكثره في البداية لكن علو مستوى الحفل المضيف قلل من قيمته في نظري، ثم جاء دفء اللقاء وما أغرقني به من حب فصار الخاتم في نظري بلا قيمة.. فطلبت رؤية العريس.. فجيء به إليَّ يتعثر في الزحام والخجل، وسلم عليَّ بحرارة، فخلعت من يدي خاتماً كبيراً وقدمته له، فهاجت المشاعر من جديد هياجاً دافقاً بالحماس والعاطفة البدائية المتوحشة، وحينئذٍ تقدم مني رجل يربو على الخمسين من العمر ولكنه متين البنيان رشيق الحركة ممتلىء بالنشاط والبهجة، وأحسست أنه صاحب هذا البيت، إذ أحاط كتفي بذراعه ودفعني برفق إلى الداخل..

صرت فوق بساط على أرض من الخشب خلال ساحة واسعة تطل عليها أبواب وتشكيلات ديكورية وتمتلىء بالألوان المزدانة بتحف وعناقيد ذات عراقة في الأبهة. في المواجهة سلم خشبي عريض ذو درابزين مخروط. أذن لي الرجل فتقدمت صاعداً فإذا بي في صالة مستطيلة مفروشة كلها بأرقى الأثاث وفاخر البسط، من السقف تتجلى قطع النجف كغابة من السحر الشفاف. جلست في صدر المكان وجلس الرجل بجواري، ثم توارى الجالسون زرافات ووحداناً حتى امتلأت القاعة وتلألأت الابتسامات المشرقة على الوجوه. ومدت إلينا أكواب الشربات على صوان من الفضة الخالصة، وتلكأ أمامي السفرجي بطربوشه وقطنيته ذات الحزام، وأمطرني بالتحيات والدعوات، فعبثت يدي المرتعشة في جيبي وانتزعت ورقة مالية جديدة أطبقتها، وقبل أن أدسها في حزام السفرجي اختلست نظرة إليها فتبينت إنها من فئة العشرين جنيهاً فشكني دبوس الغضب شكة صغيرة سرعان ما نسيت ألمها في نظرة الانبهار والتقدير والإكبار التي انتشرت على الوجوه ولست أعرف كيف

تسرب خبر هذه الورقة في الحال إلى أقصى القاعة رغم أنني حاولت كتمانه بحركة يدي السريعة.

مال الرجل نحوي برأسه وقال مبتسماً:

ـ سرقت مني الأضواء يا سمو الأمير هذه الليلة. ابتسمت بدوري وإن كنت لم أفهم على التحديد مقصده ـ غير أنني فوجئت بالصحافي وقد بزغ في المقعد المجاور لي مباشرة، وكأن حركة تنقلات سريعة قد حدثت في لمح البصر ليجيء هو بجانبي، وامتطت رقبته نحوي مشيراً بيده إلى الرجل.

ـ الأستاذ فتح الله العوضي.. من كبار السياسيين القدامى وعضو مجلس الشعب.

ورغم أنني لم أكن قد سمعت في حياتي بشيء عن العوضي إلا أنني هززت رأسي في حماس كأنني أعرفه جيداً. وقلت:

ـ طبعاً أخي.. طبعاً.. نار على علم.

فانبرى الأستاذ العوضي وراح يحكي لي مغامراته مع الملك ومع جمال عبد الناصر، وكيف إنه ـ الوحيد ـ الذي قال لا، وأدان بذلك عصر عبد الناصر في مذبحة القضاء، وقال أيضاً أنه من كبار الوفديين وأنه قد آن الأوان ليسترد الوفد قاعدته الشعبية العريضة ويوقظ ماضيه السياسي الحافل.. فجاءني إحساس حاد بأن هذا الصحافي لا بد أن يقوم من جواري، وأخذت أدبر لإزاحته، وأدبر أيضاً لاصطياد هذا المحامي الكبير لعله يصبح واحداً من عملائي ولعلني بقليل من الحيلة أصبح شريكاً له في هذه المزرعة الكبيرة الحافلة. لكن الحفل لم يعط فرصة لذلك. فسرعان ما دعيَ سمو

الأمير - الذي هو أنا - لتناول العشاء. وكان عشاء يليق بسمو الأمير حقاً. مائدة طويلة عليها صنوف الذبائح وألوان الأطباق والزجاجات وكان الأستاذ العوضي قد تفرغ تقريباً لمراقبتي وإثارة شهيتي للطعام. وقد سرب في حديثه عبارات سريعة مقتضبة فهمت منها، أنه خال العروسين أي أن الولد يتزوج ابنة خالته، كما فهمت أيضاً أن لديه بعض المشروعات التجارية والصناعية الكبيرة.. فبيَّت النية عليه ولم أعلق بشيء.

ثم اقتيد سمو الأمير - الذي هو أنا - إلى القاعة من جديد.. وجلسنا ندخن وقد اقتحمتنا أصوات آلات موسيقية خافتة مقبلة من الشمال الشرقي.. ثم طلب مني أن أتقدم لتحية الفرقة الموسيقية، فسرت خلف الأستاذ العوضي حتى خلصنا إلى شرفة في الشمال الشرقي تناثرت بها كراسي من الخيزران تطل على مساحة شاسعة مسورة بجدار من الأسمنت تظلله الأشجار، أقيم عليها صوان غير مسقوف، وفي المواجهة مسرح ارتفعت فوقه الفرقة الموسيقية، وأمام المسرح عشرات الصفوف من الكراسي جلس عليها عشرات المدعوين. فما إن ظهرت في الشرفة ورفعت يدي بالتحية حتى انضبطت الفرقة في الحال وعزفت السلام تحية لي، ثم انعطفت إلى أنغام راقصة مبهجة يقودها الأكورديون. وخرجت من الكواليس راقصة يتلألأ فستانها بالترتر وينجاب عن ساقيها، كانت كأنها تواصل رقصاً بدأته خلف الكواليس من مدة طويلة ثم قفز وراءها شاب أنيق جداً مفروق الشعر محزق الثياب ذو صوت رخيم راح يداعبها بألحان راقصة، ثم هدأ فجأة وغنى موالاً رمز فيه على جملة تقول: «أملا كلامي تحية والمسا واجب.. على ناس إمارة وكمل يفهموا الواجب». فما إن أتمها حتى قفز على المسرح رجال

راحوا يتسابقون في اللهج باسمي فوق المسرح شاهرين أوراقاً مالية كبيرة، والولد المطرب يلهث ويعيد أطناناً من عبارات التبجيل والتعظيم حتى أشفقت عليه ورثيت لهم جميعاً. وكان لا بد لي أن أظهر بما يليق بسمو الأمير، فمددت يدي في جيبي ورحت أعبث بالورق متمنياً أن تصطدم يدي بورقة صغيرة بعض الشيء، ولكن حركة يدي بقدرة قادر وصلت إلى المسرح.. فإذا بالراقصة تهبط عن المسرح وخلفها الطبال والمزاهري، تجوس بين المدعوين مقبلة نحو الشرفة إلى أن اختفت في ظلها ثم حودت ثم فوجئت بها صاعدة من سلم خارجي ومقبلة نحوي، فأوسعوا لها رحبة صغيرة فزحفت عليها وأدت فاصلاً من الرقص أطار لبي، وأسال عرقي، فدفعت إليها بورقة أخرى من فئة العشرين جنيهاً، فألصقتها بجبهتها واستأنفت السير عائدة إلى المسرح فلما وصلت شرعت الورقة أمام المطرب وراحت تستدر هتافة باسمي ما يزيد عن نصف ساعة.

استغرقتني مظاهر البذخ حتى أحسست بالسأم يتسرَّب إلي.. إلا أنني في لحظة الشعور بالسأم رأيتها، أقصد رأيت عينيها السوداوين تبعثان نحوي أشعة من لهب مضيء، عينان واسعتان تطلان من فتحة باب الشرفة، فيهما طموح نبيل ورغبة في الارتفاع وتمنٍّ. رغماً عني صرت أختلس إليهما النظر، فلما ظهرت أمامي تبين لي أنها طفلة في الثالثة عشر من عمرها، غلامية الوجه والقوام ترتدي فستاناً متواضعاً يكشف عن قدرة الله العظيمة فيما يغرينا بولوج النار. كانت تمشي إلى آخر الشرفة وتبعث بصرها إلى السور المعرش وتمط رقبتها وتتكلم، فدققت فرأيت وجوهاً كالحة تطل من فتحة في تعريشة السور، ثم تبين لي أن جدار السور

المعرش لم تكن سوراً، بل كان كتلاً من الأجساد والوجوه التي وقفت تتفرج يابسة خائفة من الطرد إن هي عبرت عن فرحها مع الأفندية - وخيل إلي أنني نزلت في عصر وليس من مكان، وأننا في عصر ما قبل ثورة يوليو المصرية. ثم أن الفتاة الغلامية ذات العيون السوداء الواسعة أقبلت من جديد فسحبت عنقي وراءها حتى اختفت.. وفوجئت بالصحافي يهبط علي وبأنفاسه تطوف حول أذني هامسة بأنني لا يجب أن آخذ كلام المنتج السينمائي على محمل الجد، فقلت له: أي كلام؟. قال: أي كلام!. فانصرفت عنه إلى الراقصة. وبعد برهة فوجئت بالمنتج السينمائي يجلس أمامي ويميل هامساً بأنني يجب أن أحترس من خبير السيارات وألا أغتر بهذه المظاهر!. فانصرفت عنه أيضاً فتسلل خارجاً. وإن هي إلا برهة حتى أقبل خبير السيارات فحياني بكأس وهمس لي أنني يجب أن أكون على حذر من الصحافي ولا أصرح أمامه بشيء، فأحسست بمغص في بطني، وعرفت لماذا يمكن أن يصبح رجلاً مثلي أميراً في مصر، بل وحاكماً إن أراد.

ثم جاء الأستاذ العوضي ودعاني إلى جلسة هادئة نتكلم فيها. فقمت واتجهت إلى حيث أشار لي. دخلت باباً موشى بالستائر الحمراء.. فوجدت نفسي - أنا والفتاة الغلامية ذات العيون السود - في غرفة واحدة!

وقفت مسمّراً. كانت تنظر إليّ في شيء من الانبهار. دققت النظر في إنساني عينيها، أحسست أنه ليس انبهاراً بل هو نوع من الاستهانة أو الاستخفاف. داخلتني نشوة طاغية من هاتين العينين اللتين تستخفان بي وتتحدياني إذ هما من حيث لا تدري تثيران فيَّ الرغبة في قهرها. تقدمت مني حاملة طستاً وإبريقاً من النحاس..

ـ تبغي الوضوء!.. لدينا مياه في الحنفيات ولكن ربما أحببت الوضوء في مكانك ها هنا..

ـ الوضوء!!

وكتمت ضحكة كانت حرية بأن تكشف عن سوقيتي، وبدا أنني متورط وظهر في عيني الفتاة ذكاء شارخ. كان من الواضح أنها موقنة بأنني لا أصلي، لدرجة أنها همَّت بالخروج. آلمني ذلك. قلت لها:

ـ «تعالى يا بنت».

فنظرت إليَّ مرتاعة وقد تحولت عيناها إلى ثقبين منفتحين على الجحيم:

ـ «بنت؟.. يعني إيه بنت؟».

ثم وضعت الطست في الأرض بهدوء كأنها تستعد للعراك معي:

ـ «فاكرني شغالة؟».

فضحكت أنا كما ضحكت هي، وأحسست بسعادة غامرة لا أعرف لها سبباً. وكان من الواضح أنني نسيت مسألة الوضوء هذه، حتى أن طقوسها وحركاتها البسيطة بدت لي مشكلة كبيرة..

قالت الفتاة ببراءة:

ـ الناس عندنا يتصورون أن كل الأمراء يؤدون الفرض بفرضه!

وفهمت من نبرة صوتها عكس المعنى الذي تقول. مع ذلك قلت نعم هذا حق. وعدت فقلت نعم نعم وهل هناك شك في ذلك. ثم

أخذت أشمر أكمامي، ورحت أتوضأ. في هذه اللحظة دخل الأستاذ العوضي حاملاً سجادة الصلاة. حاولت إيجاد مدخل لتملق الفتاة. قلت للأستاذ العوضي بينما أنا أتوضأ، ابنتك هذه يا عوضي بيك؟.. فصفعني من الفتاة رد لم أكن أتوقعه، قالت مع ابتسامة متحدية:

ـ الناس عند الوضوء تقول أشياء أخرى.. أن أم سمو الأمير نسي ما يقال عند الوضوء!

لحظتها ميزت بين مياه الوضوء وبين عرقي..

ضحك الأستاذ العوضي وقال ببساطة:

ـ لا ينزعج سمو الأمير من لماضة لمياء.. فهي لطيفة وكلنا نحبها.

انهيت الوضوء كيفما اتفق، وقلت:

ـ بالعكس أنا سعيد جداً بلمياء..

وفي لمح البصر كانت لمياء قد حملت الطست والأبريق وانصرفت وارتفع داخلي صوت قوي يقول: «ليس الحجاب بالنسبة للفتاة أن نغلق عليها باب الحريم ونلفها في الثياب من أخمص قدميها إلى رأسها.. إنما الحجاب الحق تصنعه الفتاة بنفسها حتى ولو كانت عارية».

وأيقنت في الحال أن لمياء قد افتتحت من نفسي منطقة مجهولة فقلت للعوضي بيك:

ـ ابنتك؟

قال إنها مثل ابنته وأكثر، فهي في الواقع ابنة سائق سيارته، وأنها في الإعدادية، وأن أباها الأسطى «إبراهيم الغرابلي» قد سمّاها لمياء حباً في اسم شقيقة العوضي بيك. ذلك أن «إبراهيم الغرابلي» ينتمي إلى أسرة العوضي بيك منذ سنوات طويلة انتماء يتوارثه أباً عن جد؟..

ثم افترش السجادة وأشار لي قائلاً:

ـ تفضل.. أقم الصلاة يا سمو الأمير..

فأقمت الصلاة.. وأصر على أن يقدمني للإمامة. فاعتذرت بشدة، لا لشيء إلا لكوني غير صالح لهذه المهمة، فأنا بالكاد أستطيع تأدية الصلاة كأي مسلم عادي أما أن أكون إماماً فهذا ما لم يكن يخطر لي ببال. وقلت للعوضي بيك أن فارق السن بيننا يحتم أن يتقدم هو ليؤم الصلاة، ولكنه أصر.. فلم أجد بداً من الموافقة ولم أكن متوتراً في حياتي مثلما كنت في تلك اللحظة، حيث أخاف أن أخطىء في الصلاة فيكون منظري غير سار أبداً. وما شغلني في الدنيا خوف مثل شغلي بختام الصلاة، فهي التي ستكشف جهلي. ولكن العوضي بيك تكفل بها وحده بصوت عال وخيراً ما فعل إذ أنني أضعت همساتي في صوته. تلقيت لثمة يده بلثمة من يدي استأنفتها على شفتي. ثم نهض فنهضت معه. وقدمني إلى الباب. فخرجت. استقبلني الباحة المباحة فأغرتني بالتجوال دونما حرج، وكنت قد تشربت الإمارة على التمام فحق لي أن أتصرف كما يحلو لي فالبيت بيتي وإن لم يكن بيتي، والحفل حفلي وإن لم يكن حفلي، والأهل ليس فقط أهلي أو عشيرتي بل هم تحت إمارتي، لحق بي العوضي بيك وتقدمني إلى ممر كأنه في سفينة عائمة، وعرجنا إلى

«قمرة» أنيقة أين منها قمرة «الربان العظيم»، قال وهو يدفع بابها أنها حجرة مكتبه، حيث يكون قد انتهى من لقاء «الجماهير» وفرغ من دوشتهم، صحيح أن هناك من يضطلع بمهمة الاستقبال وتصريف الحاضرين إلى الخارج بأي شكل، وأن زبدة المواضيع تصله ملخصة في ورقة صغيرة، وربما جملتين على الشفاه، وربما هزة رأس على سبيل الاستهانة.. صحيح كل هذا ولكن حتى هذه الزبدة تقتضي منه شغلاً لا ينبغي أن يجور على شغله الخاص، فهو صاحب مزرعة كبيرة كما أرى، ولديه مكتب للاستيراد والتصدير، ومعرض للسيارات، وبضعة أرتال من العجلات ترتع على الطريق بين القاهرة وبور سعيد.

أحاطت نظرتي بكل شيء في الحجرة ـ القمرة.. فقاعة شرقية بكل معنى الكلمة شلت من الجلد المزخرف وصوان من الفضة اللامعة عليها أطباق وقوارير، ودواليب من الارابسك عجوزة وصلبة وتريد أن تتكلم معك ـ على الشلتة المستطيلة جلست متكئاً على شلته أخرى عالية، وجلس العوضي بيك في مواجهتي، وكان الضوء العليل المنبعث من فتحة في خشب السقف ينعكس على صلعته الأنيقة، ويضفي على ملامح وجهه ظلالاً من الرقي، والهيبة، حتى صوته الرصين يتمازج بلسانه الفصيح المتين. فكأنه واحد من العرب القدامى جداً جداً. واحد من البطون البعيدة لا يستطيع عصر كعصرنا الهزيل أن يبتلعه، فيبتلعه هو. دهمني إحساس قوي بأنني مجرد سمكة صغيرة غشيمة تتخبط بين أمواجه العاتية. مع ذلك كنت سعيداً وفرحاً فرحة المدى البعيد، فرحة الأحساس بالخطر الداهم الذي من فرط خطورته صار أمناً، فأن تتخبط بي الأمواج هائجة مائجة فلست إلا كياناً جزئياً أقل ما يمكن أن يكون من

مستوى النظر.

قال العوضي بيك وهو يشعل لي سيجارتي بولاعته الذهبية:

ـ مرحب سمو الأمير.

دهمتني ولاعته الذهبية وأنا الأمير استخدم ولاعة كحيانة. وقررت أن أتشبث بالإمارة إلى أعلى درجة، خوفاً من السقوط المحقق باستمرار المحاولة مع العوضي بيك. وقد ألهمني الله عادة من عادات الإمارة الأصيلة، أن يجلس الأمير في وقار كبير ويستمع فحسب، وليس مطلوباً منه أن يناقش أو يجادل، إنه إما أن يأمر أو ينهي أو يقرع، وأي مخلوق أمامه.. أياً كانت شخصيته ومهما كانت قيمته ـ فهو مشمول بإمارتي. وهكذا تربعت في مطرحي وتركت العوضي بيك يتحدث، حديثاً ممتعاً في الواقع، ومغرياً بالاستماع، بل إنه بالنسبة لي كان مثل الدينمو يشحن رأسي ووجداني بمعلومات عالية المقام وأذواق في السلوك رفيعة المستوى، ولكن آه من خطورته، آه لو تحدث المعجزة ونتآلف معاً في لحظة تفاهم يعترف فيها بإمارتي ولو كانت زائفة، حينئذٍ نصير أصدقاء لا يقوى الزمن على التفريق بيننا، فقط يعفيني من إثبات إمارتي، يعفيني من إثبات النسب، وفي نفس الوقت يعاملني باعتباري أميراً، إنني لا أطلب منه سوى أن يحتفظ لي بما للأمراء من حقوق وواجبات، والخوف كل الخوف أن يعرف حقيقتي وأنني مجرد صاحب متجر للسيارات نصف رأسماله كمبيالات وشيكات تمر بدورات مرسومة بدقة، أنني أذن أتحول في نظره إلى صبي من صبيانه ويكون هو المعلم الذي يجني كل الفائدة، إنه طاقة كبيرة وأنا لا يجوز أن أحصل من ورائها على الفتات.. إنني لست صاحب عمل يستخدم أمثاله من

المصريين فحسب بل أنا أمير، والوضع الطبيعي أن أكون أنا صاحب العمل، والعوضي بيك ترساً من تروسه، ماذا لو فاتحته في الأمر، حسن أنا باعتباري أميراً من حقي أن أتجرأ وأفاتح أي مخلوق في أي أمر بكل حرية، يمكنني مثلاً أن أقول للعوضي بيك بجلالة قدره: «لك وظيفة عندي».. الأفضل أن أقول له: «إيه رأيك لو أنا جيت أستفيد بخبرة سيادتك».. لا.. الأمراء لا يقولون هكذا.. إنهم يأمرون بلهجة مهذبة كل على قدر مقامه..

- كنت أقول لو أن العوضي بيك.. لا سمح الله يعني.. أقصد أنني.. أكون سعيداً لو أن العوضي بيك تفضل وقبل مشكوراً أن يكون.. يكون.. مديراً كبيراً لأعمالي.

عينا العوض بيك مثل خرزتين كبيرتين مسمرتين في ثقبين في وجهه لم أقو على مواجهة البريق المنبعث منهما، أشعلت سيجارة وأنا أتوقع أن العوضي بيك يدبر لي رداً حارقاً رادعاً يعلمني به الأدب جزاء هذه اللعثمة واللجاجة التي تفوهت بها. لكني فوجئت بأن العوضي بيك يبتسم بعمق حيث تكرمش وجهه واختفت عيناه تماماً من وجهه حتى كأن لم يكن لهما وجود من قبل، انتهزت فرصة غيابهما واستطردت:

- قلت إيه يا عوضي بيك؟

فجأة انفرج وجهه وانفتح الثقبان فأطلت الخرزتان وراحتا تتماوجان. ثم أنه وضع ساقاً على ساق وقال باحترام شديد:

- أنا خدامك يا سمو الأمير.. أنت تأمر..

كدت أنتفض صائحاً من الفرح:

ـ إذن فأنت موافق!

ـ نعم لماذا لا ولكن..

اهتز قلبي فكان اهتزازته هي التي قاطعت العوضي بيك فصمت ناظراً إلي بجانب عينه نظرة ذات معنى..

ـ لكن..

وصمت أنا الآخر منتظراً.

ـ أيستطيع سمو الأمير أن يدفع مرتبي؟

غاص قلبي في الأرض. قال صوت في داخلي: «لا وألف لا». وقال صوت على لساني:

ـ إن سيادتكم لا تقدرون بمال.. ولكن.. ما تأمرون به كمرتب لن يسعني إلا الموافقة.

ابتسم مرة أخرى ابتسامة عجوزة ناضجة بكل نظرته الحقيقية لي، ابتسامة أحسست أنها وزنتني وقدرتني على الدقة والتحديد، ولم يكن ينقصها إلا النطق قائلة: «أنت كداب». لكنها لفرط حكمتها نطقت بقول آخر:

ـ الواقع يا سمو الأمير إن مرتبي الحقيقي لا يستطيع أي عمل في الدنيا أن يفي به سوى أعمالي أنا الخاصة.

فضلت أن أعتقل لساني خوف النزول إلى خيبة أخرى، واكتفيت بهز رأسي علامة التأييد لكلامه..

ـ ولكن..

ثم صمت، وقالت ابتسامته «ولكن مرة أخرى».

فقلت اهيه..

ـ إذا كان لسمو الأمير أن يستفيد من خبراتي ومن مشروعاتي فالأجدى له أن يفعل مثلما نفعل نحن الفلاحين ها هنا.. وهو منتهى الحكمة.

قلت له متلهفاً..

ـ وما الذي تصنعونه؟..

قال وهو يترك السيجارة ليشعل البايب:

ـ هناك ناس على شاكلتنا من الفلاحين لا يشتغلون بالفلاحة ولديهم أموال يريدون لها النمو الخصيب.. فيقوم الواحد منا بشراء عدد من الأبقار والجاموس ويوزعها على بعض الفلاحين.. أنت فلاح ولديك حظيرة وحقل وشغلتك الفلاحة.. فلأشتري لك بقرة أو جاموسة أو ما تحتمله قدرتك على الرعاية.. ثم تتكفل أنت أيها الفلاح بالتربية والرعاية، وما تدره الأبقار من لبن أو تلده من عجول يكون ربحاً تستحق ثلثه.. وهكذا ترى نفسك في ظرف ربيع أو ربيعين قد تضاعفت حظائرك. وهذه أنجح وسيلة لمضاعفة رأس المال ونموه بسرعة، فهو مشروع لا يكلفك أي مشاغل إدارية أو مشاكل عمالية أو مفاجآت ضرائبية.

قلت له بغاية الفرح:

ـ تريدني أن أفعل ذلك؟

قال:

ـ لا.. إذا كان سمو الأمير يريد أن يستثمر بعض ماله فعليه أن يسلمه لي. وأنا ألتزم بتسليمه نسبة مئوية تصل إلى الخمسين في المائة في كل عام!.. خالص الضرائب.. لأنني سأقيم مزرعة معفاة من الضرائب خمس سنوات.

قلت له إنني موافق وما عليه إلا أن يعطيني مهلة قصيرة أتدبر فيها الأمر بقليل من الروية، وقلت له أيضاً أن أموالي على كثرتها تعتبر قليلة بحكم قلة خبرتي في التجارة، فليس من عادة الأمراء التجارة. وهنا نظر إليَّ العوضي بيك نظرة عرتني من ثيابي، مع أنه قال: «أي نعم.. الإمارة خلاف التجارة». ثم لذت بالصمت من جديد وعاد هو يتحدث عن تاريخ العرب، ابتداء من معنى كلمة عرب، حتى ما يسمى بأزمة الشرق الأوسط. وكان يجرني جراً إلى أن أتحدث عن عائلتي، وأن أذكر له نسبي كاملاً، وكنت أهرب منه بفتح موضوع جديد. لكنه بلباقة شديدة قدم لي «أجندة» مكتبه قائلاً:

ـ إذا تفضلت فإكتب عنوان سموك هنا لكي أتصل بك عند اللزوم.. أم أن في هذا ازعاجاً لسمو الأمير؟..

عندئذٍ انشرخ السكون واقتحمتني ضجة الفرح من الساحة الخلفية، ورغم أنها لم تنقطع إلا أنني كنت قد نسيتها. وكانت «الأجندة» قد انتقلت إلى يدي، التي راحت ترتعد.. وكنت أفكر: هل أكتب اسمي الحقيقي أم أزيف اسماً يتصل نسبه بنسب الأمراء الحقيقيين؟ إن الرجل الجالس أمامي يكاد يعرف أسماء العائلات العربية فرداً فرداً، وأي ادعاء جديد أمام هذا الرجل أمر غير مضمون العواقب، مع ذلك تذكرت أنني أمير ويجب أن أسلك سلوك الأمير، فنحيت «الأجندة» جانباً في هدوء وأشعلت سيجارة وقلت له

أنني ساعطيه بطاقة فيها كل ما يريد. وهنا تدخلت العناية الإلٰهية وأنقذتني من ورطتي، إذ طرق الباب فصاح العوضي بيك: ادخل.

فدخلت «لمياء» حاملة صينية عليها بعض أصناف الفاكهة النادرة، وحينما انحنت لتقدمها أمامي خيل إلي أن الأرض تميل كلها معها، ثم استقام عود الفتاة من جديد فأخذت أبحث عن عينيها إلى أن التقطتهما فوجدت أنني أحب أن أراها على الدوام، صحيح أنني متزوج وعندي أولاد، ولكن لا بأس من رفيقة مصرية، هناك رجال من بلادنا يتزوجون من مصريات، فالزواج من المصرية ربما كان أسهل زواج في الدنيا، ذلك أنها لا تحب إلا أن تعيش مستورة فحسب، أما أنا فلست أحبذ هذه العادة، فما كان الحصول عليه ميسوراً بدون قيود أو التزامات فمن الخطل وضع الإنسان نفسه في القيود والالتزامات، إن المصرية في هذه الآونة غيرها في أزمنة سابقة، في الماضي كان الزواج منها رقياً وتمديناً، الآن اختلف الأمر وأصبح الزواج منها تفضلاً، ذلك أنهن كثيرات، ومن ثم بلا ثمن، وواحدة كهذه بالنسبة لواحد مثلي تعتبر نزولاً، فأنا إن لم أكن أميراً حقيقياً فإنني ـ بالنسبة لها على الأقل ـ أمير وأي أمير، ثم أنها ابنة الأسطى «إبراهيم الغرابلي»، والأمر ببساطة يمكن أن يتم عن طريق السيطرة على أبيها.. ماذا يعطيه العوضي بيك مرتباً شهرياً؟.. لأعطيه أنا أضعاف أضعاف، أعطيه ما يماثل مرتب العوضي بيك نفسه، يمكنني أيضاً أن أستدعي «لمياء» للعمل في متجري بمرتب يجعلها تنبذ التعليم وتنصرف عنه.. إنني مستعد للتنازل عن كل شيء إلا عن رغبتي في امتلاك هذه الفتاة وقهر نكائها و«لماضتها»..

اختفت «لمياء» وطرق الباب مرة أخرى قبل أن أستجيب لدعوة

العوضي بيك في تذوق الفاكهة. دخل المنتج السينمائي يتلصص على حذر، ثم استأذن فسمح له بالجلوس، وقال بلا مناسبة إنه يبحث عن الصحافي. إن هي إلا برهة وجيزة حتى دخل الصحافي دون استئذان وصاح في غوغائية بصوت مهووس: «أنت فين يا جدع». فنظر العوضي بيك إليهما نظرة ذات معنى لم أفهمه. ودون استئذان أيضاً مد الصحافي يده وراح يتذوق الفاكهة بنهم، ثم نظر إلى المنتج السينمائي وقال بلا مناسبة:

ـ بالمناسبة عملت إيه في الفكرة اللي اقترحناها سوا؟

فانبسط وجه المنتج السينمائي ونظر إلى العوضي بيك:

ـ التكاليف كثيرة.. ولا بد من مموِّل أو شريك.

فقال الصحافي:

ـ ما رأي سمو الأمير؟!

قلت: في ماذا؟

قال بأن هناك مشروعاً لإنتاج قصة العوضي بيك في فيلم سينمائي، أو حلقات تليفزيونية، وهي قصة كفاح عظيمة، ونضال سياسي مرير، يكفي أنه الوحيد الذي قال: لا..

استسخفت الفكرة من أساسها، مع ذلك داخلني شعور بالبهجة لمجرد اكتشاف لوجود المنتج السينمائي في هذه اللحظة، فبحماس شديد أخذت أبدي أعجابي بالفكرة، وباستعدادي للمساهمة في انتاجها، ذلك أنني أحسست أن المنتج السينمائي، بهذه الفكرة، يمكن أن يكون مدخلاً إلى «لمياء». فأردفت قائلاً له:

- أصبحت أنافسك في اكتشاف الوجوه الجديدة.. واليوم اكتشفت نجمة يمكن أن تلعب دوراً في قصة حياة العوضي بيك.

وجموا جميعاً. ونظروا إلى بعضهم البعض، وتساءلوا: من هي؟. فقلت دون حرج وببساطة جادة:

- لمياء.. التي كانت هنا منذ لحظة.

فهتف المنتج السينمائي في فرح:

- أنا مستعد.

وهتف الصحافي وهو نظر إليَّ قائلاً في حزم:

- ويمكن أن تعمل على إشهارها منذ الآن. وامتعض العوضي بيك!

- لا.. دعك من لمياء هذه.. إنها لن توافق.. وإن وافقت فأنا شخصياً لا أوافق!

- لماذا تقف أمام مستقبلها؟

هكذا قلنت فرد قائلاً:

- أنا الذي يعرف مستقبلها.. ولا داعي لمناقشة هذا الأمر.

فأحسست نحوه بكراهية شديدة. واستيقظ في أعماقي شعور جارف بالتحدي.

اقترب لغط منغوم صحبه هياج مفاجيء ما لبث أن راح يخفت شيئاً فشيئاً، وعرفت أن الحفل قد حصل أخيراً على خصوصية،

وأن المدعوين قد انصرفوا وعادت العروس إلى داخل البيت ليقوم أهل البيت بأداء دورهم في التعبير عن فرحهم بطريقتهم الخاصة، استأذن العوضي بيك وخرج ليشرف على تنظيمهم في الباحة. ثم دخل خبير السيارات متهالكاً متهدل الثياب، وقال لي إن نصف عمري سيفوتني إذا لم أقم وأتفرج على الحفل الحقيقي الذي بدأ. رحبت على الفور خوفاً من عودة العوضي بيك، ونهضت مستعداً، فاقتادني خبير السيارات إلى الباحة وخلفنا الصحافي والمنتج السينمائي.

كانت آلة «الاكورديون» قد توهجت وأخذت تجود بأحلى ما في جوفها من أنغام راقصة. والطبلة والرق يصاحبانها لتنضم إليهما «السلامية» ثم «الأرغول».. وكانوا يشكلون دائرة واسعة، وكانت هي - لمياء - بلحمها وشحمها، قد تحولت إلى غصن بان يتراقص رقصاً لم أشاهد مثله في حياتي، كانت تملؤني بهجة وإصراراً، وتشد الزغاريد من الحناجر شداً.

أنتم تعرفون أنني لست مراهقاً، أؤكد لكم أن لمياء في تلك اللحظة لم تكن تثير فيَّ شعوراً بالمراهقة، بل لم تكن توحي بأي خلاعة، إنما كانت برقصها تعبر عن فرح حقيقي، حتى أنني في وقفتي - لولا أن تذكرت بأنني أمير - كدت أهبط إلى الدائرة وأرافقها في كل حركة.

ولقد بت ليلتي مفعماً بكثير من المشاعر الجديدة علي، ممتلئاً برغبة لا حدود لها في البذل، وبالمقابل في جمع ثروات طائلة، وعجبت كيف يكون تحقيق الإمارة سهلاً هكذا في حين يصبح الاستحواذ على فتاة كهذه مشكلة تؤرقني. فلما أيقظوني كانت

الشمس قد جنحت إلى الإصفرار، وحينئذٍ استطعت أن أرى القرية.. من ضجعتي على السرير مسنداً رأسي، وعبر نافذة جانبية رأيت القرية من بعيد تنكفيء على نفسها، كتلة من الطين الأسود تتخللها أبنية مستطيلة تشبه الأبراج وما هي بأبراج. كان الفقر المدقع يعصب وجهها بتعاسة وبؤس شديدين.

نزلت عن السرير. تمطعت. ذهبت إلى الشباك ففتحته. نظرت إلى الطريق. هالني ما رأيت: أفواج من البشر يجلسون على أكوام السباخ حول القصر، بأعداد هائلة، ظننت أنهم يعملون في معية العوضي بيك، ثم صححت ظني بأنهم أهل الدائرة جاؤوا يعرضون شكاواهم. غير أن العوضي بيك طرق الباب ثم دخل باسماً وهو يشير لي نحوهم قائلاً:

- شايف سموك.. عملت لنا مهرجاناً!

- كيف.. ما علاقة سموي بهؤلاء؟

- لقد جاؤوا يتفرجون عليك.. وهم يجلسون هكذا من الفجر في انتظارك!

- كيف.. وهل أنا فرجة؟

- طبعاً.. ربما كانت هذه أول مرة في حياتهم يرون فيها سمو الأمير..

- ظننتهم أهل دائرتك جاؤوا يطلبون مقابلتك.

- أهل دائرتي أنظف من هؤلاء.. صحيح أنهم من بين الأصوات.. ولكن من يطلبون مقابلتي ناس غير هؤلاء.. فهؤلاء ربما

لا يعرفون ما معنى وجودي!

فعرفت لماذا كان فرعون القديم يمكث حاكماً ما يزيد عن الثلاثين عاماً. ثم إنني تناولت فطوري على عجل وما إن شرعت في الخروج حتى كانت أفواج البشر قد أخذت تقترب من بوابة القصر، وحينما وطأت قدماي أرض الشارع هجمت الأفواج علي كموج دافق. فكدت أصرخ من الخوف، وكانت نظراتهم الشرهة المخيفة التي كانت تتابع يدي أينما تحركت تلقي الرعب في نفسي، وبحثت عن طريق بينهم فلم أستطع، وصاح العوضي بيك مصرحاً بأنه سيدع السيارات تخترقهم، ولكن أحداً منهم لم يتحرك. فقال الصحافي إنه سيطلب البوليس والهجانة، وقال المنتج السينمائي أنهم يجب أن يشرفوهم أمام ضيفهم، وقال خبير السيارات أنه سيضربهم بالنار إذا لم يوسعوا طريقاً.. ولكن لا حياة لمن ينادي.. صفوف صفوف من النساء والعجائز والأطفال تقف ناظرة في بلادة كحيوان خرافي لا يعرف أي لغة.. فتكاتف رجال العوضي بيك وأغلقوا البوابة.. ثم اقتادونا إلى الداخل من جديد معلنين أننا لن نسافر إلا بعد أيام.

صار من الحمق مواصلة الانتظار أكثر من هذا، ولم يكن أمامنا سوى الاستعانة بالبوليس، لكن العوضي بيك استسخف هذه الفكرة واعتبرها وصمة في حقه: أن تقول الأجيال القادمة أنه ذات يوم جاء بالبوليس ليضرب أهل دائرته. أحسست أنني في سجن رهيب. تذكرت البدع التي انتشرت في العالم في هذه السنوات الأخيرة: أن يعمل مجموعة من الفدائيين على احتجاز مجموعة من الرهائن. في العادة يكون مع الفدائيين قنابل أو أسلحة، أما هؤلاء فبلا أي سلاح يحتجزوننا رهائن!.. ولكن رهائن ماذا؟ ربما يكون قد صور لهم الوهم أنني معتد على حقوقهم، وأنني أتمتع بأرزاقهم؟.. ما الذي

يريدونه مني بالضبط؟.. إن مظهرهم لا يدل على شر، ولا ينذر بأي وعيد، لكنهم جدار كثيف ليس من السهل اختراقه..

قلت للعوضي بيك في شيء من التريقة وشيء من الجد:

ـ أفضل أن ترسل لهم مندوباً للتفاوض.. وليكن أنت.

ضحك العوضي بيك مما يؤكد استهانته بالأمر.. فقررت أن أفعل شيئاً يذكر بأهميتي، ووجدتني أقول في وقار مرتعش:

ـ يا عوضي بيك إذا استمر الوضع هكذا فإنني.. أقصد فإنه.. قد يهدد بأزمة دبلوماسية!..

لحظتها لم أجد العوضي بيك في مكانه، صار إلى كرة من المطاط تتقافز من فرط الضحك الذي يفيض مرحاً واستهزاء معاً، وأحسست أنه فاهم كل شيء، وأن تشبثي بالإمارة ضرب من العبث لا طائل من وراءه، فبدأت أكره الأصدقاء والرحلة من أساسها، لكن العوضي بيك مسح عينيه وقال:

ـ لا تجزع.. فلسوف تنجاب الغمة وتخرج من هنا بإذن الله سالماً.

تجاهلت ما في كلامه من تهكم واضح. وقلت له بخوف:

ـ لقد مر عصر ومغرب وظهر والناس لا ينصرفون.. كأنهم يطاردون مجرماً هارباً من العدالة.. ومن الواضح أنهم لا يرغبون في الانصراف مطلقاً..

أيدني الصحافي قائلاً بينما يشير إلى النافذة:

ـ لقد نشأ بينهم باعة يبيعون اللب والفول السوداني!..

دفعت برأسي من النافذة، اهتاجت الجموع دفعة واحدة وأخذت تشير نحوي بأصابعها مطلقة صياحاً غامضاً.. فارتعشت أوصالي وضحكت رغماً عني، وهنا تفتق ذهن العوضي بيك عن حيلة لا شك في أنها طريفة وبارعة:

ـ ليتفضل سمو الأمير فيخلع ثيابه هذه ويرتدي حلة من حلل العريس!

قلت: والله أنها لفكرة. وأضاف العوضي بيك:

ـ ويلبس أحد رجالي ثيابك!..

قلت: جميل.. وماذا بعد؟..

قال: ويقف أحد رجالي بثيابك هذه في هذه النافذة ليشغل الناس.. ثم تتسلل أنت بثياب العريس خارجاً من أي باب يعجبك.. وعليك أن تمشي في أي اتجاه يصادفك.. ويكون الأسطى إبراهيم الغرابلي في أثرك ليوصلك بعربتي إلى القاهرة.

استحسنت هذه الفكرة ودخلت فنفذتها على الفور. وكانت ثياب العريس ضيقة بعض الشيء فجعلتني أبدو صغيراً، ووضعت نظارتي السوداء على عيني ثم اندفعت خارجاً من الباب الخلفي. فإذا بي أخوض في طريق زراعي تتناثر على جانبيه البيوت والسواقي، وناس يجلسون وأطفال يلعبون ورجال يلعبون «السيجة» وآخرون قد استغرقوا في النوم. ومع ذلك فما إن رأوني خارجاً حتى تحفزوا للانقضاض، لكنهم عادوا من جديد حينما أشرت إليهم نحو البيت

بما يعني أن الأمير لا يزال في الداخل.

ظللت أسير في نفس الطريق. تظهر بيوت ثم تختفي لتظهر حقول.. لتختفي بدورها وتظهر بيوت جديدة، مما يشير إلى أنني قد مررت بمجموعة من العزب والكفور، وكنت ألتقي ببعض الفلاحين يسحبون الأبقار ويمشون في بلادة، فيداخلني يقين بأنهم يسحبون أبقار غيرهم. وكنت أحب منظرهم وأحس بألا خطورة منهم على شرط أن يظلوا أفراداً. وقلت لنفسي إن هؤلاء الفلاحين الأصلاء مثل هذه الأرض مثل هذه الأبقار يعطون دونما انتظار لعائد، كالأرض تنبت لأعدائها، كالأبقار تدر اللبن تسلم رقبتها لجزارها.. وقررت أن أضمهم إلى مصادر ثروتي.. إن العوضي بيك ليس أحسن مني، وأي جزار ليس أذكى مني، ولسوف أنفذ نفس الفكرة التي طرحها أمامي ليلة أمس.. سوف أملكهم أبقاراً وأتملكهم..

داعبني زقيف العربة وهي تزحف مقبلة نحوي. وسعت لها، وقبل أن أفتح بابها أخذت أمعن النظر في إبراهيم الغرابلي كأنني أريد أن أفهمه بنظرة واحدة. ثم إنني جلست بجواره فاندهش دهشة بالغة وتصبب العرق على وجهه وقال:

- العفو يا سمو الأمير.. إن مكانكم ليس هنا بل..

فابتسمت متعمداً إظهار تواضعي، وقلت له ألا فرق بين أمير وخفير، فراح يدعو لي بطول العمر وراحة البال. وسألته عما إذا كان الناس قد انصرفوا فبان عليه الخجل وقال ضاحكاً:

- إنهم يا سمو الأمير.. الحق أنهم.. لقد رأوك في الفرح وأنت تمد يدك في جيبك فلا تخرج بأقل من ورقة بعشرين جنيهاً.

مددت يدي في جيبي لأطمئن على نقودي فوجدتها فقلت للأسطى إبراهيم:

- بهذه المناسبة خذ هذه الورقة لك.

فرفض بشدة، وظلت يدي معلقة في الهواء بالنقود طويلاً دون أن يمد يده، وعبثاً حاولت إجباره على قبول هديتي ولكنه أقسم برأس أبيه ألا يأخذ شيئاً لا يستحقه. أكبرته إكباراً شديداً ومع ذلك ضقت به ونقمت عليه، فعدم قبوله هديتي معناه هزيمة كل أسلحتي تجاهه، ومن ثم فإن «لمياء» تطير مني، إن المهر الحقيقي للمياء ليس النقود بل الحب.. هذه حقيقة أعرفها جيداً.. وقد أزعم أنني أحببتها، ولكن الأمر يختلف ها هنا، فإن تحب ليس مبرراً كافياً لأن تملك، وكذلك أن تملك ليس مبرراً كافياً لأن تحب.. لا تبتسموا بخبث فأنا لم أسكر بعد ولا أعتقد أنني سأسكر بعد ما عشت هذه التجربة. أقول قد أزعم هذا ولكنني لا أملك الزعم أنها أحبتني أو ستحبني، كل ما أستطيع تأكيده أنني أمير وهي جربوعة، أما عقلها، أما ذكاؤها، أما ارتقاؤها بنفسها إلى مستوى الرغبة في التعليم والنهل من ينبوعه، فكل ذلك ليس شيئاً إذا ما حرم الإنسان الحياة، إن الزهور لا تنبت من العدم، وإنما السباخ والروث يخصبان عودها، حسن، هذا العود إذا لم يشرب ويرتوي فما الذي يحدث له؟ إنه يذوي ويموت.. وأنا بالنسبة للمياء مروي، وهي بدوني ستذوي وتموت بين أحضان هلف فقير يسقيها المر يعبئها بالأولاد، أنا مستقبلها الذي أثق أنها تتطلع إليه حيث ترفل في النعيم وتملك ما تراه في أيدي الآخرين.. هذا ما افهمه وإن غلطني أحد في ذلك يكون رجلاً غير عملي في نظري!..

سألت الأسطى إبراهيم عن راتبه وكم يتقاضى من العوضي بيك. فقال الرجل: مستورة.. وقبل يده ظهراً لبطن. شددت عليه الخناق حتى يقر بحقيقة المبلغ وهو مصر على أنها مستورة والحمد لله. والطريف أنه بعد ذلك راح يتحدث حديثاً متقطعاً غير مترابط. استطعت أن افهم منه أن العشرة القديمة تفرض عليه أن يحتفظ بهذا السر، وأنه لا يعتبر نفسه موظفاً رسمياً لدى العوضي بيك حتى يحاسبه بالحق والمستحق، إنما هو يخدم بدافع العشرة ووفاء بالعهد القديم، فهو منذ رأى الدنيا رأى أن أباه وأمه يخدمان هذه الأسرة مقابل أن يعيشوا في غنائها ومن هباتها وعطاياها الدائمة، حتى صارت خدمة هؤلاء لأولئك نوعاً من الولاء وليس أكثر، وهذا ولاء حيواني في الواقع رغم أنه مفرط في الإنسانية، وأي ولاء من هذا النوع مصيره إلى الإنهيار المحقق بإزاء غول الحياة وولعة الأسعار، أن الحياة رغبات غالية الثمن وليست في قدرة احتمال سائر البشر.. فأي ولاء ذلك الذي يمنعني من معانقة الحياة إذا جاءت لحد عندي.. وهكذا قررت التصدي لهذا الولاء حتى أهزمه، على أن تقوم «الأجهزة التنفيذية» بتنفيذ هذا القرار على مهلها!..

وكشف لنا طول الطريق عن عشرات المداخل ومئات القرى والمدن والعزب وآلاف الكفور، وعشرات أخرى مما لا هي قرى ولا هي مدن. ومن حولها الأراضي بمساحات شاسعة يصارعها فلاحون ومصاصو العروق سأمانين قرفانين ملقين بكل عبء على إرادة الله. وقد دخلت إلى الأسطى إبراهيم من كل هذه المداخل، فتأكد لي أن سوق الأبقار ها هنا هو في الواقع بترول جديد، وبهذا أكون أنا مثل كل الأمراء قد امتلكت منجماً هائلاً، فإن أنا سيطرت على

مساحة كبيرة من هذا السوق هنا أكون قد حققت لي الإمارة لقباً وواقعاً. لدهشتي تحمس الأسطى إبراهيم تحمساً بالغ الشدة حينما سألته إذا كان يعرف رجلاً أو أكثر أستطيع أن أشتري لهم أبقاراً يربونها.. فقال أنه شخصياً ليس له في هذه اللعبة ولكنه سيدلني على أخيه الفلاح المتخصص في تجارة الأبقار، وعليه هو أن يوجهني. فألححت عليه أن يقودني إليه بمنتهى السرعة، فأقسم أن أخاه يقطن في بلدتهم التي تبعد عن بلدة العوضي بيك ثلاثين قرشاً في القطار، وأنه سوف يتسلل بعربة العوضي بيك صباح غد فيعطيه عنواني ويبعثه إلي في الفندق الكبير.

فقلت له ما هكذا يكون الكلام، وذكرته بأنه يخاطب سمو الأمير، وبأن التصرف الأمثل هو أن يجيء بنفسه ومعه أسرته كلها مضافاً إليها أخوه، لزيارتي في الفندق، ونتفاهم في الأمر، وهذه دعوة مني لهم، ودعوة الأمير لا بد أن تلبَّى. وقال إنه لا يستطيع إهمال العوضي بيك يوماً واحداً، ولكن ما دام الأمير قد تنازل وعرض عليه الدعوة فإنه لا يسعه إلا القبول على أن يكون ذلك يوم الجمعة القادمة التي هي إجازته. فرحبت على الفور، وكان من المقرر أن أغادر القاهرة بعد يومين على الأكثر ولكنني أجلت سفري إلى ما بعد..

كان يوماً عظيماً بحق، وممتعاً وبريئاً صدقوني. أنتم تعرفون أنني ولد صرماح، أوافقكم، وتعرفون أنني في الأفراح وفي سائر ألوان الزحام والتجمعات خلبوص كبير، أوافقكم، لكنني أقسم لكم أن ذلك اليوم كان في منتهى البراءة، أرجوكم لا تسيؤوا الظن بلمياء ولا بأبيها ولا بأمها.. فالواقع أنني فوجئت في لمحة قصيرة جداً بأسرة كاملة تحيطني وتحولني إلى ابن من أبنائها، في البداية

حاولت الاحتفاظ بتقاليد الإمارة ولكن درجة الدفء كانت شديدة فأذابت كل الأقفال، ودرجة الصدق كانت صافية إلى حد كاد يقودني إلى الاعتراف بحقيقتي بل إلى نبذ الإمارة والنظر إليها باحتقار، مجموعة من النماذج الإنسانية لا تمل من العطاء، كأن الرعاية وأوضاع الأمن والأمان والحب وظيفتهم الرئيسية في الحياة. الأم فلاحة قصيرة القامة حلوة التقاطيع تنم عن جمال آسر نوى منذ قليل، في صوتها بحة تتحدى الصوت الأنثوي بما جبلت عليه من رقة وهدوء إيقاع يفيض بالحنان. والأخ فلاح تعود على أن «يسهر على»، فحياته سلسلة لا تنقطع من السهر على أشياء تحتاج لسهر، إما أرضه القليلة أو أرض غيره، أو أبقار غيره، أولاده أو أولاد غيره. والأسطى إبراهيم مثال للوفاء والوقار والطيبة الخالدة. و«لمياء».. تصوروا أن لمياء هذه التي صنعت بيني وبينها حاجزاً شفافاً لكنه صلب اتضح أنها قطة صغيرة وأليفة جداً.. واتضح أيضاً أن لها صورة أخرى أصغر منها قليلاً هي شقيقتها «سامية» الطالبة في الإعدادية هي الأخرى غير أنها متخلفة سنة دراسية واحدة عن لمياء.

طلبت لهم القهوة والشاي فصارت الأم تذعر كلما مددت يدي في جيبي وأخرجت نقوداً، كأنني أخرجها من جيبها هي، وكأنني من المفروض أن أخزنها، وكانت ترتاع من المبالغ الفكة التي أهملها للجرسونات وغيرهم، وتكاد تثير فضيحة في الفندق الكبير بنصائحها العالية الصوت وتحذيراتها لي من طمع الناس وفراغ أعينهم. ولقد أحسست بسعادة غامرة فكأنني بعد غياب طويل عثرت على أمي الحقيقية التي أحس بصدق أنها تخاف علي وتخاف على أموالي، فضلاً عن أن تكون طامعة في. فداخلني حب شديد لهذه

الأسرة، وقررت بيني وبين نفسي ألا أفرط في لمياء مهما كانت الظروف والأسباب.

ثم أننا تهيأنا للنزول، ولم يكن موعد الغذاء قد جاء، ففضلت أن نتجول في المدينة قليلاً، وكان في تقديري أنهم زهقوا من القاهرة باعتبارها بلدهم، لذلك كنت أشعر بقليل من الحرج لأنني أجوب بهم أماكن لا تعني شيئاً بالنسبة لهم. ولكن.. صدقوا أو لا تصدقوا، كانوا في غاية البهجة، وكان من الواضح أنهم يجيئون هذه الأماكن لأول مرة، تصوروا، بل كانوا ـ الأم والأولاد والأخ ـ يسألونني عن أسماء الأماكن بل وبعض الشوارع التي نتجول فيها بعربتي. وكانت دهشتي عظيمة وأنا أرى «لمياء» وشقيقتها «سامية» تنتفضان من الفرح فيما العربة مقبلة على الأهرامات، وكانتا تصيحان بألفاظ وعبارات نزقة تدل على أنهما لم تريا هذه الأهرامات من قبل، وصارت الأم هي الأخرى تندهش لدهشتهم، ولا تعرف لماذا هذه الأهرامات تثير الدهشة، ويقول لها أولادها أنهم يدرسون هذه المقابر في المدارس فتزداد دهشة الأم من أن تهتم الحكومة بتدريس المقابر للأولاد.

نزلنا من العربة وأخذنا نسير حول الأهرامات، ووجدتني أقوم بالشرح بقدر ما سمحت به معلوماتي عن الأهرامات، ولم أمنع شقاوتي في هذه اللحظة من التوهج، فرغماً عني رحت أشرح لهم عن هذه الأهرامات باعتبارها دليلاً على الذل والعبودية التي كان يعيشها المصريون القدامى وكيف أنهم بالسخرة أقاموا هذه الأبنية للفراعين الجبابرة. وصدقوا جميعاً فيما عدا «لمياء» فقد نظرت إلي نظرة استنكار تكاد تصل إلى الغضب، فعرفت أنها من الذكاء بحيث لن أستطيع اللف عليها فيما بعد. ولكنني عرفت أيضاً أنها متطلعة

إلى الحياة بكل ذرة في كيانها، وأن تحقيق الرغبات والطموحات المادية هو أنجح الأسلحة في السيطرة على هذه الأسرة سيطرة كاملة.

أنهينا جولتنا في منطقة الأهرامات وعدنا إلى وسط المدينة، ورغم شدة الزحام الذي يتطلب مني تركيزاً مكثفاً في قيادة العربة إلا أنني لاحظت لمياء بكل دقة، وكيف كانت تنبهر بما ترتديه فتيات في سنها من فساتين شارع الشواربي وتكاد عينها تتساقط حسرات كلما رأت زحاماً حول شيء يباع، وكنت أوجه بعض الأسئلة من حين إلى حين، وبشكل متحفظ، فعرفت أن هذه الأسرة رغم انتمائها للعوضي بيك ليس في بيتها أي شيء من مستلزمات البيت الحديث، وليس عندهم جهاز تلفزيون ولا بوتاجاز ولا غسالة ولا ثلاجة، فأسفت لذلك أسفاً شديداً بقدر ما فرحت لأن سيطرتي على الأسرة أصبحت في حكم النفاذ. دخلنا أكبر مطعم في وسط المدينة ولاحظت الأسرة وهي «ملخومة» في محاولة إظهار الأمر وكأنه طبيعي بالنسبة لهم، مع أنهم أثاروا في الجو الارستقراطي جواً سوقياً عالي الصوت بما فيه من لوم ومجادلات وجر ترابيزات واندلاق أكواب، سألهم الجرسون عن طلباتهم فحاروا ونظروا إلي، فطلبت لهم بمعرفتي حماماً مشوياً وكباباً وملأت الترابيزة بأطباق لا حصر لها، لدرجة أنهم من فرط حيرتهم لم يأكلوا جيداً، كما أنهم أهملوا أطباقاً عظيمة لمجرد أنهم لا يعرفون كيفية التعامل مع ما فيها من أصناف ولم يسمعوا بها قط في حياتهم.

شهقت الأم وضربت صدرها بل كادت تسقط من طولها حينما رأتني أدفع خمسين جنيهاً بالتمام والكمال وأنصرف، وظلت تشتم في نفسها وتؤنب مذنباً مجهولاً تسبب في خسارتي إلى هذا الحد،

في حين كنت أكتم ضحكي وأحاول انتهاز فرصة الزحام ونحن خارجون بوضع يدي على ظهر لمياء بشكل يبدو عفوياً. وقد نجحت مرة فاستراحت يدي إلى أن خرجنا، ويبدو أن لمياء فوجئت بيدي تحوط كتفها ببساطة فارتاعت ثم ارتعشت ثم ابتعدت قليلاً.

دخلنا جروبي وتناولنا قليلاً من الحلوى وتناولت أنا زجاجتين من الجعة، وأمرت بتجهيز مجموعة من الأطباق الحافلة بالحلوى لكل من لمياء وسامية وأمهما والعم عبد الفتاح، فلما جيء بالأطباق كبيرة، فخمة ودفعت حسابها أقسمت الأم أنني في حاجة إلى من يردعني، وأعلنت احتجاجها بأنها لن تأخذ شيئاً من هذه الأشياء غير أن الأسطى إبراهيم أنَّبها فسكتت. ثم أنني انتحيت بالعم «عبد الفتاح» جانباً وأخذنا نتداول الرأي في سوق الأبقار، فأحاطني علماً بظروف السوق وبأنواع الأبقار، ومتى نشتريها ومتى نبيعها ومتى نكسب منها وكم! حتى خيل إلي أنني أمام موسوعة لا نهائية في علم الأبقار، ثم أنه حدد لي - على وجه التقريب - المكسب الذي يمكن أن أجنيه لو أنني دفعت كذا في كذا أو دفعت كذا في كيت.. ثم طلب مني تقديراً محدداً للمبلغ الذي أنوي دفعه في هذه السوق فحددته له بنصف مليون على الأقل.. فغاص الرجل المسكين في ثيابه واصفر وجهه وتملكته رعشة مفاجئة أسقطت السيجارة من يمين أصابعه عدة مرات، وكان ينظر إلي كأنه يبحث عن المزاح في عيني، فلما أكدت له أنني جاد أخرج من جيبه ورقة مطوية فردها أمامي فقرأت قائمة بأسماء تصل إلى المائة وقال لي أنهم هم الذين استطيع أن أضع أموالي في بطنهم وأن كل واحد منهم يستطيع رعاية قطيع من الماشية، فكلهم فلاحون مشهورون بتربية الماشية كما أنهم يملكون حظائر كبيرة. ثم قال لي أيضاً أنني يجب

أن أكون متواجداً باستمرار في القرية حتى أستطيع الإشراف على محصول اللبن.. فعرضت عليه أن يكون وكيلاً لي في هذا الأمر، فوافق وأرشدني إلى مشروع جانبي يمكن أن يقوم هو به: أن أؤجر له داراً كبيرة وأجهزها ببعض الأواني لكي يتلقى فيها محصول اللبن، ويتخذ من هذه الدار معملاً يقوم بتصنيع السمن والزبد والجبن والمش وما إلى ذلك من المنتجات الألبانية.. وراح يحدثني عن المطلوب فكشف لي عن خبير بالفلاحة والألبان عمره سبعة آلاف عام على الأقل. ولقد تم الاتفاق بيننا على أن يقوم هو بتمهيد الطريق مع هؤلاء الفلاحين لحين عودتي في الزيارة القريبة القادمة.. حتى إذا ما جئت أنا سافر معي إلى أسواق الثلاثاء والأربعاء والأحد والجمعة في عديد من البلدان ليقوم هو بانتقاء الماشية الصحيحة البدن وما علي إلا أن أدفع، وسوف يكون كل فلاح من هؤلاء موجوداً عند الشراء ليسحب بهيمته ويصبح مسؤولاً عنها من لحظتها.

الواقع لقد أحببت هذا العم حباً كبيراً، ولكي أحكم السيطرة عليه قلت له أن عليه أن يعتبر نفسه موظفاً عندي ابتداء من هذه اللحظة. ونفحته مائة جنيه على سبيل العربون، فارتعشت يده ولم يضع المبلغ في جيبه إلا بعد إلحاح مني كأنه غير مصدق أن هذا المبلغ قد صار له.

وكان وداعي للأسرة حافلاً وعظيماً ـ سلموا علي وقبلوني واحداً واحداً والدموع تتساقط من أعينهم جميعاً كأننا أخوة منذ عشرات السنين. وطلبوا مني تحديد موعد للعودة فحددته بعد مرور شهر واحد من سفري. وقلت لهم أنني سوف أنزل من الطائرة على قريتهم مباشرة ولأكون ضيفاً عليهم في منزلهم طوال مدة إقامتي.

فجنوا لهذه الفكرة جنوناً خلاباً، واقترح الأسطى إبراهيم أن أبلغه بواسطة خطاب لكي ينتظرني في المطار، فوافقت على ذلك وانتويت تنفيذه بكل حذافيره..

أتذكرون يوم تلفنت لكم فجأة وقلت لكم أنني كنت في القاهرة؟.. كنت يومها قد أتممت أسبوعاً على العودة، وقد فضلت عدم الاتصال بكم خوفاً من سهراتكم التي أخشى أن تجرني إلى الحديث عن موضوع لم ينته، نعم وكنت من جانب آخر مشغولاً بأمر تدبير مبلغ اشتري به أبقار القاهرة، وقد شرقت وغربت وصنعت الحيل الكثيرة مع البنوك ومع الأصدقاء التجار حتى جمعت مبلغاً يقترب من نصف المليون جنيه مصري، ثم استخسرته في الواقع، ورأيت المساهمة بنصفه والاستفادة بالباقي في متجري، ثم عدت فاستخسرت النصف ورأيت المساهمة بالربع. وأخيراً خفت من التضحية بمبلغ كهذا فقررت المساهمة ببضعة آلاف لا غير، وكنت قد تعاقدت في القاهرة على صفقتين كبيرتين بواسطة الصحافي وخبير السيارات فلما شرعت في تنفيذها وجدت أن عائد الربح منهما يكفي لأن ألعب به وحده في سوق الماشية.. ومع ذلك أخذت مبلغاً كبيراً وعدت القاهرة.

كان الأسطى إبراهيم الغرابلي في انتظاري في مطار القاهرة كما اتفقنا. وكنت قد اتصلت بخبير السيارات ورجوته أن يسلم عربتي المؤجرة إلى الأسطى إبراهيم حتى لا نحتاج لعربة العوضي بيك. وقد صرفت في المطار مبلغاً لا بأس به تمكنت بسببه من الإفراج عن حقائبي في الحال، وهي في الواقع لم تكن مجرد حقائب بل كانت أشياء ثقيلة، ثلاجة وغسالة وتلفزيون ملون وبوتاجاز لبيتي الذي نويت إنشاءه في القاهرة لكي أتركه للأسطى

إبراهيم فيما بعد. وأطنان من الملابس الفاخرة التي تدير رأس لمياء.

حملت عربتي وعربة أخرى نصف نقل، وقادنا الأسطى إبراهيم إلى قرية تقع هناك في منطقة نائية من شمال الدلتا فيما بين المنصورة ودمياط، اسمها «كفر المساخيط»، يقولون أنها سميت هكذا نسبة إلى ما كان يوجد بها من تماثيل أثرية يطلق عليها العامة اسم المساخيط، ويقولون أنها سميت هكذا نسبة إلى أهلها أنفسهم باعتبارهم مجرد مساخيط تأكل وتشرب وتفلح الأرض. كان الأسطى إبراهيم هو الذي يذكر هذا ضاحكاً كأنه يتكلم عن ناس لا يعرفهم. فلما دخلنا كفر المساخيط فوجئت بأنها قرية كبيرة ولها طرق مرصوفة وبها بيوت أقرب إلى العمارات، فاندهشت من أن يكون في مصر كل هذه البلدان وكل هؤلاء البشر ثم يكون هناك فائض للرصف والكهرباء وما إلى ذلك، ولو أن هؤلاء البشر كلهم في بلد غير مصر يتناوب سرقتها ونهبتها قوافل وراء قوافل لزحف أهلها على المناطق المتاخمة وأكلوا أهلها أكلاً.. فوجئت أيضاً بعربات ملاكي وموتوسيكلات وحناطير، وبنات تلبس آخر موضة ـ كذلك فوجئت بمحلات تبيع الأقمشة وتختزن من البضائع ما يوازي رأسمال دولة نامية. وأخيراً وصلنا بيت الأسطى إبراهيم فإذا بهم قد صنعوا لعربتي طريقاً لطيفاً مفروشاً بالزلط المبشور والرمل. فتصنعت التألم وقلت لماذا هذا التعب يا أسطى إبراهيم؟ فأقسم أن الذي فعله هم الرجال الذين جئت لكي أملكهم الأبقار.

كان البيت عبارة عن شقة بالدور الثاني لبيت من دورين اثنين داخل حارة سد، وكانت الحارة كلها قد خرجت عن آخرها ووقفت في الأبواب وعلى الأسطح تتفرج علي وتشرئب بأعناقها في فضول كبير.. الشقة مكونة من ثلاثة غرف ضيقة، بها من الأثاث كنبة

وثلاثة كراسي خيزران وسرير حديد بعمدان، وبوريه قديم، وترابيزة كتربيزات المقاهي يذاكر عليها الأولاد. أفرغت نصف النقل من محتوياتها، وجيء بها إلى الشقة تقافزت الفرحة على وجوه كل أهل الحارة بل زغردوا من أجل الفرح الذي حلٍّ بجارهم، واقتحمت الشقة وفود من النساء والبنات الجميلات والصبيان يتفرجون على الأشياء، فصعب علي القول بأن ثمة أشياء لي وثمة أشياء لهم، وسكت، فاعتبرتها كلها أشياءهم، وكان شعوري بالنشوة لا حد له، فقد تحققت من معنى العبارة التي رددها الصحافي ذات يوم، وفهمت كيف أن الأمم يمكن أن تقاد باستثارة شهواتها.

ثم ما لبثت وفود الرجال أن أقبلت حتى اكتظت الشقة تماماً، فانتقل الجمع إلى دار الأخ «عبد الفتاح الغرابلي»، وهي أوسع كثيراً حيث جلسنا على الحصائر ورحنا نتبادل المشورة في أسعار الأبقار وأنواعها.. وفي النهاية قر قرارنا على البدء بأقرب سوق وهو سوق الثلاثاء الذي يقام في بلدة مجاورة.

كان المفروض أنني ضيف على أسرة الأسطى إبراهيم الغرابلي، وأن الأشياء التي دخلت بها بيتهم - باستثناء القليل منها - سيؤول إليهم على سبيل الهدية التي تليق بسمو الأمير. ولكن الليل حمل مفاجآت غريبة، فقد وفد إلى دار العم «عبد الفتاح» رجال من علية القوم، وحضرت وفود من المدرسين والممرضين والفلاحين والأجراء ليسلموا علي ويشاركوا في الاحتفال بي، والواقع أنهم كانوا يكشفون عن السبب الحقيقي وراء زيارتهم بحديثهم الملح عن عقود العمل المطلوبة لهم في بلادي.. فكنت أمنح الوعود عن يمين وعن شمال وبلا تحفظ، فهي مجرد وعود تليق بسمو الأمير.

غير أن أغرب شيء فاجأني به المساء هو أنني تذكرت مجموعة من زجاجات الويسكي أحضرتها في حقائبي، فبعثت بمن يأتي بواحدة أو اثنتين أو ثلاث افتحها على ذمة الحضور، ولكن «المرسال» - وهو الأسطى إبراهيم نفسه - عاد بعد مدة طويلة دون أن يحمل شيئاً. ثم اقترب مني وهمس في أذني أنهم لا يستطيعون فتح أي من حقائبي إلا في حضوري، إن كان لهم أن يفتحوها!.. فلم أفهم معنى هذا على وجه التحديد وأحسست بغضب شديد، ولكن الحضور تكلفوا باعتقال غضبي، إذ راحوا يتبارون في رص الحشيش والدخول علي بالجوزة والنكات الحارقة حتى تمنيت أن أقضي بقية العمر جالساً هكذا الشلتة والمسند من خلفي وكل هؤلاء يعملون على تصحيح مزاجي وإدخال البهجة والسرور علي.

وعند آذان الفجر خرجوا واحداً وراء الآخر حتى صفصف المقعد علينا: العم «عبد الفتاح»، و«الأسطى إبراهيم»، و«أنا» وأصر العم «عبد الفتاح» على أن أبيت في داره ولكن «الأسطى إبراهيم» كان قد استعد بإدارة محرك العربة حسماً للموقف، وحملني إلى داره على هودج الصباح، فلما استقر بنا المقام على الكنبة كان النوم الوافد قد طار، وكان أهل الدار قد استيقظوا وجاؤوا، وتلقفتني الزوجة بالتعنيف: كيف أتصور أن باستطاعتهم فتح حقائبي حتى لو بإذن مني؟! فاندهشت وقلت لهم إن حقائبي هذه ليست حقائبي وحدي وإنما هي لهم، ألست الآن واحداً منهم، فهزت الزوجة رأسها في رفض بات، وقالت إن الحقائب هي حقائبي وستظل حقائبي إلى ما لا نهاية. قلت: ولكن بها هداياكم.. فقالت: وما مناسبة الهدايا؟ إننا لم نفعل شيئاً نستحق عليه الهدايا، أتحب أن تتقوَّل الناس علينا بالزور والبهتان.. إننا إن قبلنا منك شيئاً ولو جورباً واحداً فسوف

يتهمنا الناس هنا بأننا أعطيناك شيئاً في مقابله، وأن من حقك ومن حق أي أحد أن يقدم هدية إلى أحد. ولكننا ليس من حقنا أن نقبل هذه الهدية لأن ثمنها سيكون أغلى ما نستطيع!؟..

قلت والغضب يكاد يعصف بي: ما هذا الكلام الغريب؟!

فاستطالت قامة هذه الزوجة القصيرة لا أدري كيف، ومالت نحوي هامسة في ود كبير قائلة:

ـ يا سمو الأمير نحن غلابة.. ولدينا ولايا.. أنت سموك ترى لمياء.. وسامية.. فتاتان في الإعدادية.. عروستان.. والناس لن تسأل عن الحقيقة حين ترى على أجسادنا أشياء منك.. إنها لن ترى من الحقيقة شيئاً إلا هذه الهدايا.. ولن تتساءل: لم الهدايا؟.. لأنها ستقرر من البداية إنك لم تعطنا شيئاً إلا جزاء ما أخذت منا.. وما الذي ستأخذه منا ونحن فقراء؟.. أتفهمني يا سمو الأمير؟.. إنك لن تأخذ منا سوى.. سوى.. أنت تعلم أن لدينا ولايا.. هأنا قد قلت لك كل شيء يا سمو الأمير..

لا بد أن مطراً كان يرخّ عليَّ وحدي، لأن تياراً من البرودة راح يغزو جسدي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، ورحت أدقق في هذه المرأة القصيرة الحافية، وأستعيد كلماتها لأبحث فيها عن مبرر يجعلني أحتقرها وأكرهها، فلا أجد فيكون ذلك في ذاته مبرراً لأن أضيق بها أشد الضيق وصاح في داخلي صوت يريد أن يريح أعصابي قائلاً: أنها تدبر لصفقة أكبر، فلا تأكلن من كلامها، واستجابة لهذا الصوت رأيت أن أوافقها على رأيها تمهيداً لكشفها على حقيقتها في ظرف لاحق. ونمت هذه الليلة كالمضروب على أم رأسه بالحذاء. فأنا لا يمكن أن أقتنع بأن مصرية فقيرة في هذا

الزمن تستطيع أن ترفض هدايا الأمير، إنها «بعظمة» لسانها تعترف أن اللحمة لا تدخل بيتهم إلا في كل شهر مرة، فثلاثة جنيهات تدفع في مصروفات لمياء وسامية خير من دفعها في كيلو من اللحم.. ثم أننا نرى المصريين في بلادنا يكاد الواحد منهم يقتل الآخر في مقابل قرش أزيد، ونرى منهم المساخر في الدس لبعضهم بعضاً وفي تدبير المكائد لبعضهم بعضاً.. ثم تجيء امرأة كهذه تكمل عشاءها نوماً كما يتندر المصريون، وترفض هديتي مدعية العفة والشرف؟.. أي عقل يصدق هذا!..

فتحت عيني عند الظهيرة على كوب الشاي باللبن. ثم قدموا لي صينية عليها طبق به قطعة من الجبن القريش، وطبق آخر به بيضتان مقليتان، ورغيفان كبيران، وحزمة من البقدونس.. وشاركني «الأسطى إبراهيم» في الأكل، وكنت أحس للطعام بمذاق لم أعهده في حياتي. ثم جاءت أكواب الشاي تحملها لمياء، فما إن رأيتها حتى تكهربت أعصابي وخيل إلي أنني لم أرها منذ شهور طويلة، وأحسست بشعور غامض نحوها، شعور هو مزيج من اليأس والإصرار والنفور والجاذبية؟. ثم جاءني شعور بالانقباض، أردت أن ألقي بآخر سهم في جعبتي، قلت:

ـ أسطى إبراهيم.. ناد زوجتك إذا سمحت..

فنادى على الفور:

ـ تعالى يا أم لمياء..

فجاءت على استحياء.. ثم تربعت بجوار زوجها.

قلت لها كأنني ألقي لنفسي بطوق النجاة:

ـ أنني أطلب القرب منكما في لمياء..

فهبط عليها وجوم صحبه توتر خفي ولكنه عنيف، أحسسته بدقة، حتى أن عيني «الأسطى إبراهيم» تحولتا فجأة إلى كأسين من الدم. وشفط كوب الشاي دفعة واحدة ثم رمى بالكوب، ولم يتكلم بشيء. وزمت الزوجة شفتيها وغابت في شرود استشعرت فيه الأسف، فحل بي الارتباك ولكنني تماسكت:

ـ ما رأيكما؟..

شوح «الأسطى إبراهيم» فيما يكاد يكون قرفاً:

ـ هاك أمها فاسألها!..

وكان على وجه الأم إحساس عميق بالرهبة..

فشوحت هي الأخرى وقالت:

ـ والله ما أدري ما أقول!

واستدرك الأسطى إبراهيم:

ـ فلنرح أنفسنا ونأخذ رأي البنت نفسها.. تعالي يا لمياء.

جاءت لمياء.. جلست بجوار أمها، نظر «الأسطى إبراهيم» نحوها وأشار نحوي في لهجة تخفي استهجاناً عميقاً:

ـ سمو الأمير عايز يخطبك.. إيه رأيك؟..

ـ يخطبني أنا؟..

وأشارت إلى صدرها كأنما لتمنع شهقة على وشك الانفجار..

- يظهر هذا..

هكذا علق «الأسطى إبراهيم».. فاغتظت منه.. وتعلقت بشفتي «لمياء» فنكست رأسها برهة طويلة، ثم رفعت رأسها ناظرة إلى أبيها ثم ناظرة إلي قائلة:

- لا..!

- ماذا..؟

هكذا صحت وأنا أمنع نفسي من الانتفاض حرصاً على مظهر الإمارة، واستطردت «لمياء» في بساطة آسرة:

- لا تؤاخذني يا سمو الأمير.. أنا ابنة رجل فقير كما ترى.. وهذه هي عيشتنا كما ترى.. وأنت سمو الأمير.. فكيف هذا؟!

- خذوهم فقراء يغنيكم الله..

- والله لا أوافق.. إنك سوف تظل طول عمرك سمو الأمير.. وسأظل طول عمري ابنة «الأسطى إبراهيم» السائق!..

- ستكونين زوجتي على سنة الله ورسوله.

- لن أسعدك.. سأكون مشكلة في حياتك.. وسوف تضيق بي.. أنا واثقة!

- من أدراك؟

- أنا أعرف نفسي.. أنا أحب أن يكون زوجي في مستواي.. لكي أستطيع العيش معه في سلام.. أنا.. يا سمو الأمير.. أحب.. أن أكون زوجة.. وأنت تطلب جارية.

وابتسمت الزوجة لأول مرة وهي تقول بسعادة غامرة:

- من أين تجيئين بهذا الكلام يا بنت.. والله عال.. فتحت المدارس أعينكم.

وعلق «الأسطى إبراهيم» كأنه ينهي الموقف خوف المزيد مما يحرجني.

- البنت بصراحة وراها تعليم تنوي أن تكمله.

- يمكن أن انتظرها حتى تتمه.. أخطبها وانتظر..

وإذا بالرد الذي لم أكن أتوقعه يصفعني من «لمياء»:

- يا سمو الأمير.. أنت أتيت إلى هنا لتشتري الأبقار.. لا لتخطب عروساً.

وكانت هذه هي الضربة القاضية التي سقطت على أثرها مغشياً علي، ولم أفق من ذهولي إلا حين ارتفع الصوت الذي بداخلي يقول:

- احذر أن تأكل من هذا الكلام، لا تنسى إنك تتحاور مع مصرية، أي أنك تتحاور مع شيطانة ناعمة، تريد أن توهمك بالأمانة والشرف والصراحة و.. و.. إلخ هذه الفرشة التي ستوقعك بعدها في حبائلها لا محالة. وهنا وضعت في ابتسامتي كثيراً من الخبث، وقلت كأنني أنتقم من طول لسانها:

- أي نعم جئت لأشتري الأبقار.. وهذه الأبقار يمكن أن تكون لك..

ـ أنا لست راعية.. ولا أنوي أن أشتغل بالجزارة.

ـ أقصد أنني يمكن أن أكتبها باسمك.. لتكون ملكك لك وحدك..

ـ في مقابل أن أتزوجك؟..

ـ باعتبارك ستكونين زوجتي.

ـ هه.. أنت إذن تطالبني أن أتزوج الأبقار؟!

فلم أجد ثغرة في الجدار أنفذ منها إلى التلاشي وأحسست أنني أقل من لا شيء. وهذا الشيء الذي هو جسدي أحسست كأنه عبء ثقيل. كنت أبحث عن منديل، وقفزت «لمياء» كالقطة السيامية وناولتني منديلاً لا أعرف من أين خلقته لحظتها، وكانت تنظر في، وكنت أنظر فيها، فأرى في عينيها الواسعتين حنواً كبيراً، يكاد يقنعني أنها أم عمرها سبعة آلاف عام، وكنت واثقاً ومدركاً أن كل مشاعري المهانة منعكسة في عينيها، وأنها تحتويني بنظرتها وتواسيني كأنما جرحني ناس آخرون! وكان الصمت العميق قد تجسد على المكان، وكان ثمة ريح مجهولة تهيل الرمل الساخن على رأسي، ثم جاء صوت «لمياء» مبللاً بقطر الندى.

ـ هل أغضبك يا سمو الأمير؟

تخلقت الابتسامة على شفتي وكأن ميلادها يسبب لي ألماً لذيذاً، قلت:

ـ طبعاً يا لمياء.. فالإنسان يعز عليه أن يتقرب إلى ناس فيرفضونه.

إحمر وجه «لمياء» وجالت على ملامحها عواصف من الحزن

والإحساس بالذنب، أما الوجهان الآخران فلم أكن أحفل بوجودهما. لكن صوت «أم لمياء» شدني بما فيه من صدق وإخلاص وصفاء غريب:

- بالعكس يا سمو الأمير.. نحن ناس غلابة.. ونحن لا سمح الله لا نرفضك.. إننا وتربة خالي... لسنا نحب أن نفعل شيئاً تندم عليه فيما بعد إننا.. والمصحف.. نرفض أنفسنا من مكانتك أنت.. سمو الأمير.. وتريد أن ترفعنا إلى نسب الإمارة.. وهذا شرف كبير لنا.. لكننا نخشى إن أنت تركتنا لسبب من الأسباب، أن نسقط محطمين.. إن أهلك الأمراء سوف يحنقون عليك لأنك تزوجت ابنة السائق.. أنت ستدافع عن زوجتك أي نعم.. فكرامتها من كرامتك مهما كان.. لكنك في النهاية سوف تميل إلى الكفة الأرجح، كفة العائلة بالطبع.. وسوف لن يثنيك شيء عن إخمادها بأي شكل.. فما أسهل أن تعطينا ثمن التبرؤ منا عند اللزوم.. إننا لا نحب أن ننظر إلى فوق.. وأنت أيضاً ألا تنظر إلى تحت!..

فما الذي استطيع أن أرد به على امرأة فيلسوفة كهذه؟ في تلك اللحظة فقط أحسست بأنني أحتقر الإمارة وأكرهها، فلو كنت شخصاً عادياً فلربما نجحت في الحصول على «لمياء»، إنهم يخشون الإمارة، أما شخصي أنا فلعلهم يحبونه، ولكن من يدري، لعلهم يحترمونني من أجل الإمارة، ولعلني بلا إمارة لا أساوي الاحترام في نظرهم، ثم ارتفع الصوت الذي يداخلني يقول أن كل الأصدقاء الذين قاموا بمغامرات في مصر لم تصادفهم امرأة كهذه أو موقف كهذا، ترى هل كل الأصدقاء يكذبون حين يحكون عن مصر ما يحكون؟ أم أنني سيّىء الحظ؟ ووجدتني أرد على هذا الصوت بأن مغامرات الأصدقاء هي التي خلقت مثل هذا الموقف،

فلو لم يغامروا بسمعة الأمراء لما حدث موقف كهذا. أيتها الإمارة كم من الجرائم ترتكب باسمك.. ثم ضحكت ساخراً، ونهضت واقفاً، فنهضوا جميعاً بشكل آلي ووقفوا صامتين.. قلت لهم أنني آسف إذ اضطر إلى السفر إلى القاهرة الآن. فسألني «الأسطى إبراهيم» عن موقفي من مشروع الأبقار فقلت إنني سوف أعود بيوم السوق المتفق عليه أي بعد يومين. وبدأت أسلم، فسلموا علي جميعاً بحرارة، وسبقني «الأسطى إبراهيم» وراح ينقل كل أشيائي إلى العربة، وأخذت أراقبه فأراه لا يبقي على أي شيء. ثم أنه تركني وغاب بضع دقائق، ثم عاد بعربة نصف نقل من نفس القرية وصار يحملها بقية أشيائي وأنا أتابعه في حزن شديد. وكنت أنتظر المعجزة التي تتحقق فجأة فيتضح لي أنه غير جاد فيما يفعل، ولم أكن بعد قد قررت ما الذي سأفعله بكل هذه المنقولات، وأين سأذهب بها. لقد كنت أجري مناورة ولكنها فشلت وصرت في موقف لا أحسد عليه وصارت الإمارة على وشك الوقوع في الأوحال، وكان الأسطى إبراهيم يتلكأ في نقل الأشياء، ويتمهل، ويعيد الترتيب، على العربة بهدوء أعصاب منقطع النظير، فكان يخيل إلي أنه يتعمد هذا ليعطيني فرصة للتراجع عن السفر ومن ثم تبقى الأشياء عندهم كجزء من مؤامرة الرفض الهادىء الذي يؤدي إلى أن يبتلعوني ابتلاعاً الأمر الذي جعلني أتذرع بهدوء الأعصاب أكثر منه لإيهامه أنني جاد في السفر.. فإذا بي أكتشف أنه يتمهل هذا ليعطي الفرصة للحارة كلها وربما لأهل البلد كلهم ليروا أنني أخرج من عندهم بكل أشيائي كما دخلت.. فعرفت أن الفلاح المصري في بساطته خادع كمياه النيل بقدر ما يحمل في تكوينه من أخلاق النيل، ترى فيه بقعة مرتفعة مفروشة بالحشائش فتظنها جزيرة

صغيرة محاطة بأعماق لا نهاية لها، وربما اتضح كما تقول حواديتهم أن هذه الجزيرة ظهر تمساح كبير نام مخدراً بعد وجبة كبيرة.

- تفضل يا سمو الأمير..

فوجئت بأنني جالس على كرسي أمام الباب والأطفال حولي بالعشرات، حفاة عراة يعف الذباب على مؤخراتهم وعيونهم، وبقايا الوسخ عالقة بأجسامهم الضامرة، وكنت أخشى أن يلمسني أحدهم فيلوث ثيابي أو يثير قرفي، ولكن هؤلاء الحفاة والعراة كانوا يشيرون إلي ساخرين، ويتساءلون بلغة طريفة لماذا ألف هذه الملاءة عن رأسي، وبعضهم يسألني عن اسمي، وفي عيونهم لمعة بريئة ممزوجة بخبث لعله ذكاء. خيل إلي أنهم بعد قليل سيكبرون ويصبحون رغم بؤسهم الشديد - رجالاً أشداء يصبح منهم الرؤساء والوزراء والخطباء الذين ينغصون علينا عيشنا، قد ينشأ من بينهم بطل جديد يهدد عروشنا. أشحت ببصري عنهم في قرف وقد جال بخاطري أن وباء مهما كان عاتياً لا يمكن أن يفني هذا النمل البشري الذي يريد أن يشاركنا في أرزاقنا. وقع بصري على جندي يمسك مدفعاً رشاشاً وتنطلق من وجهه ابتسامة متحدية، أخذت أتفرج على صورته المعلقة على حائط في الشارع، تقدم طفل وقال لي في زهو:

- إنه أخي.. الذي عبر..

قلت له:

- عبر ماذا يا شاطر؟

- خط بارليف!

قلت له مازحاً:

ـ هل تعرف خط بارليف؟

قال مشوحاً:

ـ لا أعرف.. وأخي هذا عبر ومات.. ونحن أيضاً متنا كلنا..

انزعجت:

ـ كيف (ضحكت) ها أنتم أحياء.. فكيف متم؟

قال:

ـ أبي يقول هذا.. وأمي أيضاً تقول أننا متنا كلنا من الحزن عليه.

كان طفلاً لطيفاً، في وجهه شبه كبير من الجندي.

وقال الصوت الذي بداخلي:

نحن لسنا في حاجة إلى جنود إنما نحن في حاجة إلى أيدي عاملة.. ثم داخلني بعض الإشفاق عليه فأخرجت من جيبي قطعة نقود لعلها بريزة، مددت بها يدي نحوه في إغراء:

ـ خد يا شاطر.. خد دي عشانك.

فانتبه الأولاد كلهم ووقفوا مبهوتين، ووقف الطفل حائراً متردداً أمام يدي. وقلت للأطفال:

ـ سأعطيكم أنتم أيضاً.

فقال طفل آخر:

- لا تصدقوا يا ولا.. إنه يريد أن يأكلكم. أحسست بقلبي يغوص في الأرض. ثم تهت عن كل ما حولي، رأسي كبراد الشاي يغلي ويتنفس. هل تذكرون ما سمعناه منذ شهور قليلة؟ أظن أن بعض الصحف التي يحررها المصريون في بلادنا قد رددت شيئاً كهذا أو لعلها كانت إشاعة من الإشاعات المهم أننا سمعناها وكانت تسري بيننا مسرى الحقيقة: فقد قيل أن ثمة بعض الأثرياء الكبار من قومنا كانوا يتسلمون من الملاجىء المصرية أطفالاً صغاراً في شهورهم الأولى من الذين استغنى عنهم أهلهم أو من اللقطاء، بحجة أنهم يتبنونهم والواقع أنهم يذبحونهم ويأكلون أجزاء من لحمهم، حيث وقر في أذهانهم أن لحم الأطفال الرضع يقوى الباه فضلاً عن أنه يطيل العمر!

لحظتها يا أصحاب.. لحظتها.. والله لا أعرف كيف أصف لكم شعوري، لقد أوشكت على أن أكره الطفل ولكن ملامح وجهه كانت تحمل الكثير من ملامح وجه ابني، حتى لكأنهما شقيقان. على أنني عدت فكرهت الإمارة كرهاً حقيقياً، وكرهت أكثر ما كرهت أن يكون الإنسان ثرياً، أنتم تعرفون أنني أحب الثراء، وكل الناس قاطبة تحب الثراء وتسعى إليه، ولكن.. ملعون ذلك الثراء الذي يسيء إلى الحياة نفسها وإلى البشر. لا أكذبكم القول أنني حين تذكرت حكاية الأثرياء الكبار وحبهم للحم الأطفال تذكرت أنني الآخر كنت قد صدقتها ذات يوم في بداية ثرائي، وفي تلك اللحظة تساءلت بسرعة ما إذا كان من الممكن أن أحقق هذه الأمنية التي جالت بخاطري ذات يوم بعيد. وكان يبدو لي أنه من الممكن أن يأكل الإنسان طفلاً أو طفلين في طقتين متباعدتين طالما أن أعداد الأطفال ها هنا موازية للتراب.. ولكن لم يمنعني من وضع هذه الفكرة موضع الاعتبار إلا منظر

ابني وهو ينفسخ على مائدة وثمة نقن طويلة تغوص في دهنه وتمصمص عظامه. ثم أنني نهضت واقفاً وقد قررت أن أخلع عن نفسي الإمارة في الحال، أن أنبذها وأنبذ كل هذه الأشياء، أن أوزعها على الغلابة أنني لم أخسر فيها شيئاً، فثمنها كسبته بالفهلوة من تجار مصريين وسماسرة، وهؤلاء التجار والسماسرة كسبوا بدورهم، وما كسبه كلانا إن هو إلا دم هؤلاء الأطفال ـ قررت أن أترك أشيائي دون أن أحمل حتى عبء توزيعها، وأن انصرف بطولي فقط راكباً عربتي.

كان «الأسطى إبراهيم» قد وقف صامتاً في انتظار أن أتقدم للركوب، في حين ركب الآخر عربته نصف النقل وجلس يرقبنا في سأم. تقدمت نحو العربة وأنا أقول في تفخيم لعله آخر بقية من طقوس الإمارة:

ـ أسطى إبراهيم.. الحاجات دي أنا مش عايزها.

ـ مش فاهم يا سمو الأمير!

وكان شيئاً ينتفض على وجهه كعصفور شرير.

قلت بينما أشيح بوجهي عنه:

ـ يعني مش لازماني.. أنا متنازل عنها..

وركبت وصفقت الباب ورائي صفقة لم تتخل عن الإمارة مما أربكني قليلاً. مال وجه «الأسطى إبراهيم» نحوي وقد بدا أنه سيفجر بالدم الغاضب، وهمس فيما يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة:

- مفيش داعي يا سمو الأمير.. إحنا ما نرجعش في كلامنا أبداً..

حاولت استدعاء لهجة تعبر عن الصدق فلم أجد كما خيل لي، ولكنني قلت وأنا أحاول تهدئته بحركات من يدي:

- أسطى إبراهيم.. صدقني.. هذه الأشياء لا تلزمني.. فإذا كان هناك من يحتاج إليها فأنا سأكون مسروراً لو تفضلت وتكرمت بتوزيعها عليهم.

فزام «الأسطى إبراهيم» كأنه أسد حبيس، وقال لأول مرة بغلظة تتمسك بأهداب اللياقة:

- طب انزل سموك أنت فرقها بنفسك.

قلت بضيق:

- عافيني من الموضوع ده.. أنت تعرفهم أكثر مني.

- أنا ماليش دعوة.. من حكم في ماله ما ظلم.. وهذا ليس مالي.. وأنا لا أحكم فيه.

قلت بضيق أشد:

- خلاص.. أنت حر..

فرفع وجهه ووقف يائساً مهاناً ينفخ من الغيظ، وأخيراً التفت نحوي وقد همدت ملامحه وشحبت:

- طيب بعد أذنك دقيقة واحدة.

ثم اختفى..

ظللت جالساً في العربة والأطفال يثيرون حولي زوابع مع الصخب، وكانوا قد أهملوني تماماً. طال الوقت، وحتى سائق العربة نصف النقل اختفى هو الآخر. وبعد علبة سجائر كاملة أنفقتها في تدخين الانتظار أهل من آخر الحارة «الأسطى إبراهيم» وبجواره ثلاثة رجال: ميزت فيهم كل من العمدة وشيخ البلد وسائق العربة نصف النقل، فأحسست بانقباض شديد، ولكنني تذرعت بالابتسام، وتذرعت أيضاً ـ ومرغماً ـ بالإمارة لعلها تنقذني من أي مظهر عدواني، فلم أنزل من العربة كما كان العمدة ينتظر احتراماً له. الأمر الذي قلب ملامحه ونثر فيها عدواناً وضيقاً شديدين قررت مواجهتهما بمزيد من الإمارة..

ومال العمدة نحوي قائلاً في احترام:

ـ إيه يا سمو الأمير.. لماذا لا تأخذ أشياءك؟!

فقلت بعنجهية ندمت عليها:

ـ أنا متبرع بها للفقراء والمحتاجين.. وزعها أنت أو شيخ البلد عليهم.

ـ ولماذا تضعنا في مسؤولية؟.. إننا مهما فعلنا لن نكون عادلين وستجر علينا القال والقيل ووجع الدماغ.

قلت بعجرفة:

ـ إذن فاتركوها هكذا لمن يريد أن يأخذها.

وكان الغضب قد بلغ بالعمدة مداه وأراد أن ينتقم لهيبته، فأشار لكل من السائقين:

ـ إرمي الحاجات دي يا أسطى وروح.. سيبها في الحارة زي ما هي كده.. وأنت يا أسطى إبراهيم خش دارك واقفل بابك.

قال الأسطى إبراهيم:

- بس هو أمانة.. سمو الأمير أمانة عندي لازم أوصله بالعربية لحد مصر.. وفي نفس الوقت مش حاقدر أمشي إلا أما أشوف الحاجات دي مصيرها إيه؟

- خلاص أنت حر.. خليك.. نزل أنت يا أسطى..

وفي ظرف دقائق محدودة كانت أشيائي قد بعثرت على أرض الحارة، وانصرف العمدة وشيخ البلد في العربة نصف النقل. وبدأ الناس يتجمعون ويتكاثرون حتى صرنا في خيمة ثقيلة من البشر، وترددت أصوات: سمو الأمير مش عايز الحاجات دي.. خلاص نأخدها أحنا. ثم تقدم واحد وأخذ حقيبة ومضى، فشنكله أحدهم وكسر ساقه فوقع على الأرض صارخاً، وتقدم آخر واختلس شيئاً.. فجاءته ضربة على رأسه من الخلف، وانتزع طفل شيئاً وجرى، فجرى وراءه عشرات، وخلفهم عشرات، ثم أن العشرات اشتبكت مع العشرات في عراك رهيب جعل كثافة البشر تزحف بعيداً عن الأشياء. وتوسع طريقاً للعربة، فانتقلت إلى مقعد القيادة وأدرتها وزحفت قليلاً، وكان العراك قد اتسع بالصوات وطلقات الرصاص.. ثم تقدم صبي رث الهيئة حافي القدمين فأشعل النار في الأشياء وصار يذكيها بإشعالات أخرى متعددة حتى ارتفع أوارها مسابقاً أوار المعركة. بينما جازفت أنا ودست على البنزين فقفزت العربة واجتازت الحارة وحودت، ثم هبطت عليَّ براعة خرافية جعلتني أتراقص بالعربة كالبهلوان متفادياً الأخطار فما إن اعتدلت على الطريق الزراعي حتى بدأت الرعشة تهزني، فارتبكت، فإذا بعربة نقل كبيرة بمقطورة تثب فوق مؤخرة عربتي فتفصها وتعتدل وتجري

وكأن شيئاً لم يكن. وانتظرت أن تقف عربتي من أثر الضربة فلم تقف، فظللت أمشي بها وقد داخلني شعور قليل بالراحة إذ أن هذه الضربة الكبيرة شرف لي في هذه اللحظة، إذ أنها يمكن أن تنفي عن مظهري صفة الإمارة! تلك التي قررت ألا أعود إليها حتى لو منحتها بقرار رسمي!.

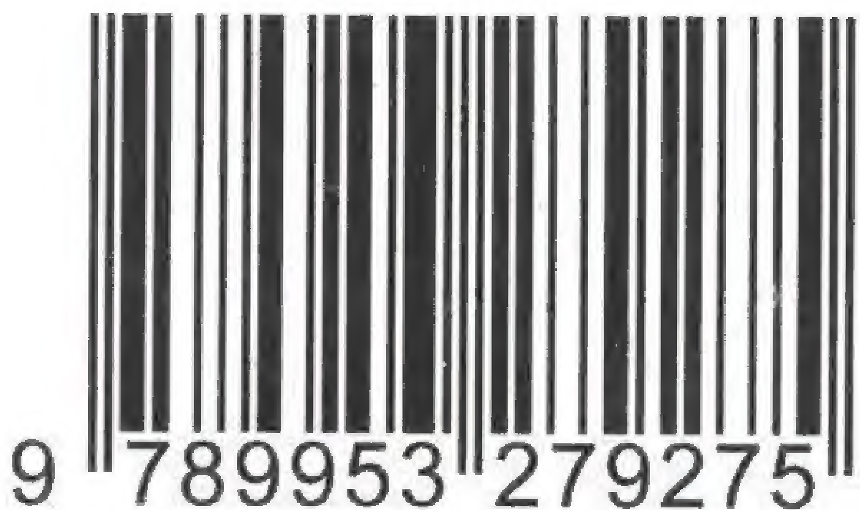
هات كأساً يا ولد..

«تمت»

صَاحِبُ السَعادة اللِصّ

«حين نزل من محطة القطار لم يعرف بالضبط ما اسم هذه المحطة، بل لم يعرف بالضبط لماذا ركب هذا القطار بالذات.. فقد سأل وهو في العاصمة عن خط الأرياف فدلّه أولاد الحلال إلى هذا القطار، فركبه...»




9 789953 279275